بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مُضِلَّ له ، ومن يضلل فلا هادى له ،ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه .

وبعد :

فإن اختصار العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر لتفسير الحافظ ابن كثير والذى أسماه « عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير » ـ يعتبر من أجود المختصرات ، وهذا يتضح من خلال المنهج الذى ذكره فى مقدمته للمختصر ، والذى ينفرد عن غيره فى نقاط ، أهمها :

١ ـ أنه تم ضبط النص وتحقيقه على مخطوطتين ، إحداهما كاملة ، مما أعان على ضبط النص ، كما هو واضح من خلال الهوامش فى الكتاب .

٢ ـ أنه أبقى على جميع الأحاديث الصحيحة ، باعتبار أن كل حديث فيه إضافة تُضم إلى غيرها مما يزيد المعنى وضوحا ـ وهو ما فعله أيضا فى الإبقاء على جميع آيات الاستشهاد .

٣ ـ أنه يذكر مصدر الحديث ولا يكتفى بالراوى ، وذلك لبيان ما وقع من وهم ، كأن يذكر الحافظ أن الحديث في البخارى ومسلم مع أنه ـ عند البحث والتحرى ـ نجده فى أحدهما فقط .

٤ ـ أنه قام بضبط الأخطاء الواردة سواء فى الأعلام أو الأحداث وغيرهما ، وساعدت المخطوطات على ذلك .

٥ ـ أنه كان من الدقة وتوفيق الله له أنه لم يُبْقِ فى المختصر إلا ما صح من أحاديث عن النبى ﷺ . ولا غرابة ، فتلك صنعته ،وميدانه الذى قَلَّ أن يُسبق فيه ، مما يجعلنا أن نقول بحق : إنه صحيح مختصر تفسير القرآن العظيم لابن كثير . قلت : وليس صحيحا تلك النسخة التى يتداولها الناس ويطلق عليها بأنها صحيح المختصر ، إذ بها من الأحاديث الشديدة الضعف والمنكرة الكثير ، بعضها أشرنا إليه فى المآخذ على مختصر الصابونى .

ولذا كان هذا المختصر من أجود المختصرات ، مقارنا بمختصر ابن كثير لفضيلة الشيخ محمد على الصابونى على شهرته ـ وكذا المختصرات التى جاءت بعده تقريبا ـ يتبين ذلك من خلال النماذج التالية من مختصر الصابونى ـ وتشترك بقية المختصرات فى كثير منها :

١ ـ فعند تفسير الآية (٢١٣) من سورة البقرة قال الحافظ : « وفى صحيح البخارى ومسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلى يقول : « اللهم رب جبريل . . . » وهو سهو من الحافظ . والصواب نسبته للبخارى فقط ، كما فى المخطوط .

٢ ـ وعند تفسير الآية (١٩١) من سورة آل عمران ، حديث عمران بن حصين ، حيث ذكر الحافظ أنه فى الصحيحين . والصواب نسبته للبخارى فقط ، كما فى المخطوط .

٣ ـ وعند تفسير الآية (٢٢٩) من سورة البقرة ، قال الحافظ ابن كثير . « وقد ذكر ابن جرير

رحمه الله أن هذه الآية نزلت فى شأن ثابت بن قيس بن شماس وامرأته حبيبة بنت عبد الله بن أبى ابن سلول » . مع أن الصواب كما فى الروايات : « حبيبة بنت سهل الأنصارى » و « جميلة بنت عبد الله ابن أبى ابن سلول » .

٤ ـ وعند تفسير الآية (٢٣٧) من سورة البقرة ، روى الحافظ ابن كثير عن سهل بن سعد وأبى أسيد أنهما قالا : « تزوج رسول الله ﷺ أميمة بنت شرحبيل ، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها ، فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين أزرقين » . حيث وقع التحريف فى موضعين فى الحديث ، فأميمة هى : « أميمة بنت شراحيل » ،وقوله : « أزرقين » صوابه : « رازقيين» كما هو موضح فى موضعه من هذا المختصر .

٥ ـ وعند الآية (٢٧٥) من سورة البقرة ، قال الحافظ : « . . . وكما قال النبى ﷺ يوم فتح مكة:« وكل ربا فى الجاهلية موضوع تحت قدمى هاتين ،وأول ربا أضع ربا العباس » مع أن الصواب : أنه هذا كان فى حجة الوداع ، كما هو موضح فى موضعه من هذا المختصر .

٦ ـ وعند الآية (٣٤) من سورة غافر ، قال الحافظ : « وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ : يعنى أهل مصر . . . وكان رسولا يدعو إلى الله أمته بالقسط . . . » حيث جاءت كلمة «بالقسط » محرفة ، وصوابها : « القبط » كما فى المخطوط .

٧ ـ ومن حيث التزام صحة الأحاديث فى المختصر،فإن هذا الشرط قد انتقض فى مواضع كثيرة ، حيث نجد فيه ـ وفى غيره ـ الأحاديث الضعيفة بل وشديدة الضعف والمنكرة ، من ذلك :

أ ـ عند الآية (٢٧٩) من سورة البقرة حديث : سهل بن حنيف أن رسول الله ﷺ قال: «من أعان مجاهدا فى سبيل الله أو غازيا . . . » . وقد تعقبه الذهبى فى التلخيص بقوله : « فيه عمرو بن ثابت وهو رافضى متروك » .

ب ـ عند الآية (١٨) من سورة آل عمران حديث: عن الزبير بن العوام قال: «سمعت رسول الله ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ . . . ﴾ . . . » . وهو فى مسند الإمام أحمد ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/ ٣٢٥) :« فى إسناده مجاهيل » .

جـ ـ عند الآية (١٠٣) من سورة آل عمران حديث: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : « إن هذا القرآن هو حبل الله المتين . . . » . وقد قال عنه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/ ١٠١) : « هذا حديث لا يصح عن رسول ﷺ،ويشبه أن يكون من كلام ابن مسعود ».

ولما كان ذلك كذلك ، فقد اشتدت الرغبة لدينا فى الحصول على هذا المختصر كاملا للشيخ أحمد شاكر ـ والمعروف أن الشيخ وافته المنية ولم نر له من المختصر إلا الأجزاء الخمسة الصغيرة والتى تولت نشرها مكتبة التراث الإسلامى آنذاك ، وهى تبدأ من سورة الفاتحة حتى الآية رقم (٨) من سورة الأنفال ـ وعليه فقد سعينا فى دار الوفاء فى الاتصال بآل شاكر للحصول على بقيه المختصر لإتمام هذا العمل المبارك ، وكان من توفيق الله عز وجل لهذا العمل أن يستكمل أن حصلنا على النسخة التى قام فضيلة الشيخ أحمد شاكر باختصارها بخط يده ، وذلك حتى آخر سورة الناس ، والتى ختمها بقوله :

« أتممت اختصار هذا التفسير الجليل فى المسودة ليكون (عمدة التفسير) بين العشاءين يوم الأحد ١٢ محرم سنة ١٣٧٦ هـ - ١٩ / ٨ / ١٩٥٦ م » .

كما كان من فضل الله لإتمام هذا المختصر أن عثرنا على المخطوطة الأزهرية التى حقق بها فضيلة الشيخ أحمد شاكر النص . ولذا سعينا جادين ـ بعد أن توافر لدينا المختصر كاملا ـ بخط الشيخ شاكر وكذا المخطوطة لضبط النص ـ فى إخراجه ليكون المختصر ـ ولأول مرة ـ كاملا بين يدى القراء الكرام .

وكان عملنا ينحصر فيما يلى :

١ ـ مقابلة النص المختصر على المخطوطة .

٢ ـ إتمام صياغة النص المختصر على المنهج نفسه الذى ذكره فضيلة الشيخ أحمد شاكر فى مقدمته، وذلك من الآية رقم (٩) من سورة الأنفال إلى آخر سورة الناس .

٣ ـ تخريج الأحاديث بالهامش ، وبيان درجة الحديث فيما هو فى غير البخارى ومسلم .

٤ ـ إتمام فهرس المسانيد وكذا فهرس الموضوعات ـ لكل جزء ـ على منهج الشيخ رحمه الله .

والله نسأل أن يتقبل منا هذا العمل ، وأن يغفر لنا ما كان من خطأ أو تقصير يغلب على طبيعة البشر ، كما أدعوه أن يرحم ويرضى عن أستاذنا وشيخنا أحمد شاكر ، وأن يجمعنا وإياه وكل من أعان فى مستقر رحمته ، والحمد لله رب العالمين .

المنصورة : ١٦ من جمادى الآخرة سنة ١٤٢٣ هـ . أنور الباز

٢٥ من أغسطس سنة ٢٠٠٢ م .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده ، حمداً وشكراً ، نسأل ربنا عز وجل أن يتقبلهما بفضله وكرمه ، وأن يجعلهما خالصين لوجهه الكريم، ونرجو أن نستوجب بهما المزيد من فضله ونعمائه ، إنه الجواد الكريم، البر الرحيم ، لا نحصى ثناء عليه ، هو ـ سبحانه ـ كما أثنى على نفسه ، إنه العلى الأعلى ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبى الأمى ، سيد المرسلين وإمام المهتدين وخاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد :

فإن تفسير الحافظ (ابن كثير) أحسن التفاسير التى رأينا وأجودها وأدقها ، بعد تفسير إمام المفسرين أبى جعفر الطبرى . ولسنا نوازن بينهما وبين أى تفسير آخر مما بأيدينا ، فما رأينا مثلهما ولا ما يقاربهما.

وقد حرص الحافظ ابن كثير على أن يفسر القرآن بالقرآن أولاً ،ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، ثم بالسنة الصحيحة التى هى بيان لكتاب الله ، ثم يذكر كثيراً من أقوال السلف فى تفسير الآى. وإنه ليذكر الأحاديث ـ فى أكثر المواضع ـ بأسانيدها من دواوين السنة ومصادرها . وكثيراً ما يذكر تعليل الضعيف منها ، ولكنه يحرص أشد الحرص على أن يذكر الأحاديث الصحاح ، وإن ذكر معها الضعاف . فكتابه ـ بجانب أنه تفسير للقرآن ـ معلم ومرشد لطالب الحديث ، يعرف به كيف ينقد الأسانيد والمتون ، وكيف يميز الصحيح من غيره . فهو كتاب ـ فى هذا المعنى ـ تعليمى عظيم ، ونفعه جليل كثير .

وكان اتصالنا به منذ أكثر من خمس وأربعين سنة، فى طبعته الأولى ببولاق، التى طبع فيها بهامش تفسير آخر من سنة ١٣٠٠ ـ ١٣٠٢هـ . وهى طبعة محرفة لا يكاد ينتفع بها نفعاً صحيحاً . ثم طبعه أستاذنا السيد محمد رشيد رضا رحمه الله ـ ومعه تفسير البغوى ـ فى مطبعة المنار فى تسعة مجلدات ، من سنة ١٣٤٣ ـ ١٣٤٧هـ،بأمر جلالة الملك إمام أهل السنة ومحيى مذهب السلف، وباعث النهضة الإسلامية والعربية الإمام (عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود) رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته . واجتهد أستاذنا رحمه الله فى تصحيحه ما استطاع ، ولكن فاته من ذلك الشيء الكثير .

ثم تداولت المطابع فى مصر طبعه طبعات تجارية ، ليس فيها تصحيح ولا تحقيق ولا مراجعة . إنما اعتمدوا طبعة المنار ، فأخذوها بما فيها من أغلاط ، ثم زادوها ما استطاعوا من غلط أو تحريف . فكان انتفاع الناس بهذا التفسير العظيم انتفاعاً قاصراً ، لما امتلأت به طبعاته من غلط وتحريف ، يجب معهما أن يعاد طبعه طبعة علمية محققة ، يرجع فيها إلى النسخ المخطوطة منه ما أمكن ، ثم الرجوع إلى مصادر السنة التى ينقل عنها المؤلف الإمام الحافظ،وإلى مراجع رجال الحديث والتراجم ، لتصحيح أسماء الرجال فى الأسانيد ـ وهم شيء كثير ، وعدد ضخم .

هذه ناحية ، وناحية أخرى : أن القارئ المتوسط ، الذى يريد أن يصل إلى المقصد الأول من

التفسير ، وهو فهم الآيات الكريمة على معناها الصحيح ، الذى يؤيده الكتاب والسنة الصحيحة ـ يجد أمامه بحراً خضما لا يكاد يدرك ساحله، من الأسانيد والآثار والأقوال ودقائق العلم فى تخريج الأحاديث ونقد الرجال ، مما يجب معه أن نمهد الطريق لهذا القارئ المتوسط ، ونيسر له السبيل . فنضع بين يديه مقاصد هذا التفسير العظيم قريبة صافية ، يفهم منها القرآن الكريم فهماً صحيحاً ، لا يخوض معه عباب الأبحاث الفنية الدقيقة فى تخريج الأحاديث ونقد الرجال ، ولا يطغى عليه اختلاف ألفاظ المفسرين من الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، وهى فى الأكثر الأغلب ترجع إلى معنى واحد فى تفسير الآيات .

وقد بدا لى أن أقوم بالعملين : نشر هذا التفسير فى طبعة علمية محققة متقنة ،وإخراج مختصر منه للقارئ المتوسط يحفظ عليه مقاصده ـ إن شاء الله ذلك ويسره ووفقنى له . ثم رأيت أن أبدأ بالذى هو أيسر وأقرب للناس ـ وهو التفسير المختصر ـ وإن كان العمل فيه أكثر مشقة ، وأصعب دقة . بعد طول تردد ، وعمق تفكير ، واستشارة كثير من الإخوان العارفين الخلصاء الأمناء على العلم والدين ، جزاهم الله عنى وعن العلم أحسن الجزاء ، ووفقنى وإياهم للعمل الصالح ، والعلم النافع . واعتمدت «مخطوطة الأزهر » أصلا لتصحيح نصوص الكتاب ، وهى أقرب إلى الصحة من كل طبعاته ، والخطأ من الناسخ فيها قليل ، يمكن تداركه بسهولة . وسيأتى وصفها فى فصل خاص ، إن شاء الله .

وسميت هذا المختصر : (عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير) وأرجو أن يكون المسمى جديراً باسمه ، إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

منهج الاختصار :

١ ـ حافظت كل المحافظة على الميزة الأولى لتفسير ابن كثير ، الميزة التى انفرد بها عن جميع التفاسير التى رأيناها ، وهى تفسير القرآن بالقرآن،وجمع الآيات التى تدل على المعنى المراد من الآية المفسرة أو تؤيده وتقويه، فلم أحذف شيئاً مما قاله المؤلف الإمام الحافظ فى ذلك .

٢ ـ حافظت على آراء الحافظ المؤلف وترجيحاته فى تفسير الآيات ، مجتهدا فى إبقاء كلامه بحروفه ما استطعت .

٣ ـ اخترت من الأحاديث التى يذكرها أصحها وأقواها إسناداً ، وأوضحها لفظا . فإن المؤلف رحمه الله كثيراً ما يذكر الحديث الواحد بروايات متعددة ، ومن أوجه مختلفة .

٤ ـ حذفت أسانيد الأحاديث التى أذكرها. فإن الحافظ ابن كثير يذكر الأحاديث بأسانيدها مفصلة من دواوين السنة . فيقول مثلاً :« قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا . . .» ـ ثم يسوق الإسناد والحديث . ثم كثيراً ما يذكر بعده تخريجه من الصحاح والسنن وغيرها ، بأسانيدها كاملة ، أو بالإشارة إلى الأسانيد .

٥ ـ فاكتفيت من ذلك بذكر الحديث عن الصحابى راويه ، أو التابعى إذا كان الصحابى غير مسمى . ثم أذكر بعد ذلك من رواه من الأئمة ، معتمداً فى ذلك على ما ذكره المؤلف رحمه الله ، وهو حجة فى ذلك . فلم أرجع إلى المصادر التى يذكرها إلا عند الضرورة القصوى ، لتحقيق لفظ الحديث ، أو لغير ذلك من المقاصد العلمية الدقيقة ، التى تتعلق بالرواية أو الدراية . ولم أزد على

تخريجه إلا ما لم يكن منه بد .

٦ـ حذفت كل حديث ضعيف أو معلول ، إلا أن يكون إثباته فى موضعه ضرورة علمية : لرفع شبهة ، أو بيان معنى حديث صحيح بحديث ليس ضعيفاً بمرة ، أو رد على احتجاج به لذى هوى أو ضغن على الإسلام وأهله ، أو غير ذلك من المقاصد العالية .

٧ ـ حذفت المكرر من أقوال الصحابة فى التفسير ، وكثيراً من آراء التابعين ، اكتفاء ببعضها . خصوصاً وأنها كثيراً ما تختلف لفظاً وتتفق أو تتقارب معنى ، كما قال المؤلف الحافظ رحمه الله (ص ٤٥ س ١١): « والكل بمعنى واحد فى أكثر الأماكن » .

٨ ـ نفيت عن كتابى هذا كل الأخبار الإسرائيلية وما أشبهها،فإن المؤلف رحمه الله قد جدبها[1] فى مواضع كثيرة من تفسيره ،وأبان عن خطلها وضررها ،وأنحى باللائمة على روايتها ورواتها ، ورسم لنفسه خطة فى شأنها.ومع ذلك فإنه ـ فيما يبدو لى ـ لم يستطع أن يسير على ما رسم ، وغلبه ما وجد من الروايات فى كثير من المواطن ، فأثبت طائفة منها غير قليلة.فحذفتها كلها ، والحمد لله .

٩ـ حذفت أكثر ما أطال به المؤلف رحمه الله من الأبحاث الكلامية والفروع الفقهية ، والمناقشات اللغوية واللفظية ، مما لا يتصل بتفسير الآية اتصالاً وثيقاً . وأبقيت من ذلك ما لم أجد منه بداً فى إيضاح معنى الآية أو تقوية المعنى الراجح المختار فى تفسيرها .

١٠ ـ أحياناً يذكر المؤلف الحافظ حديثاً طويلاً لمناسبة تفسير آية أو لمعنى يتعلق بها ، ولا يكون كله فى موضع الشاهد المتعلق بالآية ، بل بعضه فقط .

فرأيت أن أقتصر فى مثل هذه الحال على موضع الشاهد منه ؛ لأن المقصد الأصلى هو التفسير ، لا رواية الحديث كله . وأشير بكلمة تدل على ذلك ، وأضعها بين معكفين هكذا : [ ] دون أن أنبه عليه، ليعلم القارئ أن هذا من صنيعى ، لا من صنيع ابن كثير .

١١ ـ وأصنع نحو هذا فيما يذكر المؤلف من الأحداث التاريخية المطولة ، التى تتعلق بالتفسير . فأضع الملخص الذى أكتبه بين المعكفين أيضاً ، دلالة على أنه من كلامى لا من كلامه .

١٢ ـ أما الزيادات التى أضعها بين المعكفين أثناء الكلام ، سواء أكانت زائدة فى المخطوطة الأزهرية على المطبوعة ، أم كانت زيادة من قبلى لتصحيح الكلام ، مما لا يفهم الكلام أو لا يتم إلا به ـ فإنى أنبه على ذلك وعلى سبب الزيادة فى الهامش . حتى يثق المطلع على الكتاب أنى لم أتصرف فى الأصل إلا على أساس علمى صحيح .وأصيب وأخطئ ، كما يخطئ الناس ويصيبون ، والتوفيق من الله .

١٣ ـ وهناك تغيير أكتفى بالإشارة إليه هنا . وهو ما اقتضاه حذفى للأسانيد التى يسوقها المؤلف للأحاديث ـ كما بينت فى الفقرتين الرابعة والخامسة : فإما أن أذكر الحديث أولاً ، مبتدئاً باسم الصحابى مثلاً : « عن فلان » ، ثم أذكر الكتب التى نسبها إليه الحافظ . وإما أن أذكر الكتاب الذى روى منه أولاً، فأقول مثلاً : « روى البخارى » أو « روى الإمام أحمد » ، ثم أكمل التخريج الذى

---

[1] جدبها : أى ذمها وعابها .

ذكره المؤلف ، بعد سياق الحديث . دون أن أشير فى كل موضع إلى هذا التغيير ، فإنه بديهى ألجأ إليه حذف الإسناد .

١٤ ـ وتغيير آخر بسيط ، فى سياق أقوال الصحابة أو التابعين فمن بعدهم ، فى تفسير الآيات . فقد أذكر القول ثم أبين قائله ، وقد أقدم اسم قائل ذلك بعد حذف الإسناد إليه ـ على ما يقضى به نظام الكلام وسياقه .

١٥ ـ وآيات القرآن الحكيم المفسرة ، التى يذكرها الحافظ ابن كثير ويبدأ بها مجموعة ـ نرسمها على رسم المصحف العثمانى ، مضبوطة بالشكل الكامل ، على الرسم الثابت فى المصحف الذى طبعته الحكومة المصرية مراراً ، بعد تصحيحه ومراجعته فى لجنة علمية عظيمة ، برئاسة الشيخ محمد بن على ابن خلف الحسينى ـ شيخ المقارئ المصرية إذ ذاك ، رحمه الله ـ فى سنة ١٣٣٧هـ .

١٦ ـ ونثبت فى آخر كل آية رقمها على ما فى ذلك المصحف الجليل .

١٧ ـ وأما الوقوف أثناء الآيات،فنضع بجوارها شولة هكذا « ، » دون تقيد بالاصطلاح فيه بين : وقف جائز على التساوى ، أو جائز مع أولويته ، أو جائز مع أولوية الوصل . إلا الوقف اللازم ، فإننا نضع فوق الشولة ميماً صغيرة هكذا « م » .

١٨ ـ وأما الكلمة التى فيها وقفان : قبلها وبعدها ، والتى لا يجوز فيها إلا أحدهما ـ ولها اصطلاح خاص فى ذلك المصحف ـ فإنا سنتخير أجودهما وأولاهما فى المعنى . مثل ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ . فإن الوقف بعد « فيه » أدق وأجود من الوقف قبلها .

١٩ ـ ونضع فى رأس كل صفحة اسم السورة ورقم الآيات المفسرة ، حتى يسهل على القارئ البحث عما يريد من التفسير دون عناء .

٢٠ ـ ونثبت بجوار أوائل أجزاء القرآن الثلاثين ـ بالهامش ـ كلمة « الجزء» وتحتها رقمه.

٢١ ـ ونثبت بجوار أوائل الأرباع ـ بالهامش أيضاً ـ كلمة « ربع » . ومعناها : ربع حزب، والحزب نصف جزء . ولكنا لا نتقيد بذكر الأحزاب ولا أرقام أرباعها : « نصف الحزب» ، « ثلاثة أرباع الحزب » ـ المثبتة بهامش المصحف ؛ لأن أكثر الناس لا يعرفون إلا أنها كلها أرباع فذلك أيسر لهم .

٢٢ ـ وإذا كان أول الربع أول الآيات التى يذكرها الحافظ المفسر، اكتفينا بكلمة «ربع» . أما إذ كان أثناء الآيات، فإنا نضع بجواره ـ بعد رقم الآية التى قبله ـ نجمة صغيرة هكذا « ۞ » للدلالة على ذلك.

٢٣ ـ ونكتب بالهامش أيضاً ـ بجوار مواضع السجدات فى الآيات ـ كلمة « سجدة » ؛ ليعرف موضع السجود عند التلاوة ، إن شاء الله .

وأنا بفطرتى العلمية ، وبما خبرت من شأن الكتب ونفائس التراث الإسلامى العظيم ـ أكره اختصار الكتب أو أى تصرف فيها . ولكنى لمست الحاجة الماسة والضرورة الملحة لتقريب التفسير للمتوسطين من المثقفين ، الذين لم يمارسوا دقائق العلم ،ولم يتصلوا باصطلاحات العلماء الأئمة فى

الفنون ، ولطلاب العلوم الإسلامية فى شتى أنحاء العالم الإسلامى . فرأيت أن لابد مما ليس منه بد .

ثم قوى من عزمتى وأزال ترددى ما رأيت فى (مخطوطة الأزهر) من (تفسير ابن كثير). فإنى وجدتها قد خلت من كثير مما رأيت حذفه ، كأنها مختصرة من الكتاب ، وما هى بمختصرة . ولكنى رجحت ـ كأنه اليقين ـ أن الحافظ رحمه الله كان لا يزال ينظر فى كتابه ، فيزيد فيه ما يرى زيادته ، من أبحاث كلامية ، وفروع فقهية ، وأبحاث لغوية ، وأقوال وآراء للعلماء الأئمة . فخرجت نسخ الكتاب مختصرة ومطولة ، كما هو شأن كثير من العلماء الكبار الذين يحرصون على العلم والمعرفة . والمثل فى ذلك حاضرة ، لا نطيل بذكرها .

وأسأل الله العلى القدير أن يوفقنى لإتمام هذا المختصر ،على النحو المفيد المجدى المجزى . وأن يوفقنى لإخراج الأصل إخراجاً علمياً صحيحاً . إنه سميع الدعاء ، وهو ولى التوفيق .

كلمات لابن كثير بشأن الإسرائيليات

للحافظ ابن كثير كلمات قوية فى شأن الإسرائيليات وروايتها، وقد رسم فى بعضها خطته نحوها . ولكنى رأيته ـ على الرغم من ذلك ـ يحكى بعضها ، وكثيراً ما يعقب على ما يحكى بالرد . وقد رأيت أن أجمع هنا ـ فى هذه المقدمة ـ ما وجدته أثناء قراءتى فيه مما قيدت الإشارة إلى موضعه . وعسى أن أستطيع جمع ما فاتنى من ذلك، ثم أذكره فى آخر هذا الكتاب (العمدة) إن شاء الله .

فقال فى مقدمة تفسيره (ص ٤٣، ٤٤) ـ بعد أن ذكر حديث: « بلغوا عنى ولو آية، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » : « ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد ، لا للاعتضاد . فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما نشهد له بالصدق ، فذاك صحيح .

والثانى : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه .

والثالث : ما هو مسكوت عنه ، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه ، وتجوز حكايته لما تقدم . وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر دينى ؛ ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب فى مثل هذا كثيراً ، ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك . كما يذكرون فى مثل أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعدتهم ، وعصا موسى من أى شجر كانت ؟ وأسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذى ضرب به القتيل من البقرة ، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى . . . إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن ، مما لا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دنياهم ولا دينهم، ولكن نقل الخلاف عنهم فى ذلك جائز . كما قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ » إلى آخر الآية [الكهف :٢٢] .

ويقول أحمد محمد شاكر عفا الله عنه : إن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه شىء، وذكر ذلك فى تفسير القرآن، وجعله قولاً أو رواية فى معنى الآيات، أو فى تعيين ما لم يعين فيها، أو فى تفصيل ما أجمل فيها شىء آخر!! لأن فى إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذى لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه، ومفصل لما أجمل فيه! وحاشا لله ولكتابه من ذلك . وإن رسول الله ﷺ إذ أذن بالتحدث عنهم ـ أمرنا ألا نصدقهم ولا نكذبهم ، فأى تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نقرنها بكتاب الله ونضعها منه موضع التفسير أو البيان ؟! اللهم غفراً.

وقد قال الحافظ ابن كثير نفسه ، فى تفسير الآية (٥٠) من سورة الكهف ـ بعد أن ذكر أقوالا فى «إبليس » واسمه ومن أى قبيل هو ؟! : « وقد روى فى هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها ، والله أعلم بحال كثير منها . ومنها ما قد يقطع بكذبه ، لمخالفته للحق الذى بأيدينا ، وفى القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة ؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وضع فيها أشياء كثيرة . وليس لهم من الحفاظ المتقنين ـ الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين ـ كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء ، والسادة والأتقياء ، والبررة والنجباء ، من الجهابذة النقاد ، والحفاظ الجياد ، الذين دونوا الحديث وحرروه ، وبينوا صحيحه من

حسنه من ضعيفه ، من منكره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه ، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين ، وغير ذلك من أصناف الرجال . كل ذلك صيانة للجناب النبوى والمقام المحمدى ، خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ ـ أن ينسب إليه كذب ، أو يحدث عنه بما ليس منه ، فرضى الله عنهم وأرضاهم ، وجعل جنات الفردوس مأواهم . وقد فعل » .

وقال عند تفسير الآيات (٥١ ـ ٥٦) من سورة الأنبياء ـ بعد إشارته إلى حال إبراهيم عليه السلام مع أبيه، ونظره إلى الكواكب والمخلوقات: « وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم ، فعامتها أحاديث بنى إسرائيل . فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه ؛ لموافقته الصحيح ، وما خالف منها شيئاً من ذلك رددناه ،وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة ، لا نصدقه ولا نكذبه ، بل نجعله وقفاً . وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف فى روايته ، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه ، ولا حاصل له مما ينتفع به فى الدين ، ولو كانت فائدته تعود على المكلفين فى دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة . والذى نسلكه فى هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية ، لما فيها من تضييع الزمان ، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم . فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها ، كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة » .

وقال عند تفسير الآية (١٠٢) من سورة البقرة : « وقد روى فى قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين ، كمجاهد والسدى والحسن البصرى وقتادة وأبى العالية والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم ، وقصها خلق من المفسرين ، من المتقدمين والمتأخرين ، وحاصلها راجع فى تفصيلها إلى أخبار بنى إسرائيل ؛ إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى . وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها ، فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ما أراده الله تعالى ، والله أعلم بحقيقة الحال » .

وقال فى أول سورة ق : « وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا : ق ، جبل محيط بجميع الأرض ، يقال له : جبل قاف ! وكأن هذا ـ والله أعلم ـ من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس ، لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدق ولا يكذب .وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس أمر دينهم . كما افترى فى هذه الأمة ـ مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها ـ أحاديث عن النبى ﷺ ، وما بالعهد من قدم ، فكيف بأمة بنى إسرائيل ، مع طول المدى ، وقلة الحفاظ النقاد فيهم ، وشربهم الخمور، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته . وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله : «وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » فيما قد يجوزه العقل . فأما فيما تحيله العقول ، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه ـ فليس من هذا القبيل » .

وقال عند تفسير الآيات (٤١ ـ ٤٤) من سورة النمل ، وقد ذكر فى قصة ملكة سبأ أثراً طويلاً عن ابن عباس ، وصفه بأنه « منكر غريب جداً » ـ ثم قال : « والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب ، مما وجد فى صحفهم ، كروايات كعب ووهب ، سامحهما الله فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بنى إسرائيل ، من الأوابد والغرائب والعجائب ، مما كان وما لم يكن ، ومما حرف

وبدل ونسخ . وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ . ولله الحمد والمنة » .

وقال عند تفسير الآية (٤٦) من سورة العنكبوت ، بعد أن روى الحديث :« إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم» ـ قال :« ثم ليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان ؛ لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل .وما أقل الصدق فيه،ثم ما أقل فائدته لو كان صحيحاً » .

وقال عند تفسير الآية (١٩٠) من سورة الأعراف : « ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام : فمنها ما علمنا صحته، بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله .ومنها:ما علمنا كذبه، بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً . ومنها: ما هو مسكوت عنه ، فهو المأذون فى روايته ، بقوله عليه السلام: «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ». وهو الذى لا يصدق ولا يكذب ، لقوله : « فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » .

وهناك قصة طويلة جدا ،رواها النسائى فى باب التفسير من السنن الكبرى ـ التى لم نرها ـ وابن أبى حاتم فى تفسيره، عن ابن عباس ، ويسميها الحافظ ابن كثير « حديث الفتون »، ساقه بطوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ من الآية (٤٠) من سورة طه ـ ثم قال:«وهو موقوف من كلام ابن عباس ، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه ، وكأنه تلقاه ابن عباس عما أبيح نقله من الإسرائيليات ، عن كعب الأحبار أو غيره ، والله أعلم . وسمعت شيخنا أبا الحجاج المزى يقول ذلك أيضاً » . وهذا الحديث ـ حديث الفتون ـ يشير إليه الحافظ ابن كثير،فى مواضع متعددة من تفسيره. وقد نفيته عن كتابى هذا نفياً ، ولم أشر إليه إلا مرة واحدة ، عند أول مرة أشار إليه ابن كثير فيها ، عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة ، ثم أعرضت عن الإشارة إليه ، إن شاء الله ، فلا أشير إليه إلا أن أضطر إلى ذلك اضطرارا. وأسأل الله التوفيق والتيسير، والهدى والسداد .

ومن أعظم الكلم فى الدلالة على تنزيه القرآن العظيم عن هذه الأخبار الإسرائيلية ـ كلمة لابن عباس رواها البخارى فى صحيحه، ونقلها عنه الحافظ ابن كثير، عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة. فقال ابن عباس :« يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء ، وكتابكم الذى أنزل الله على نبيه أحدث أخبار الله ،تقرؤونه محضاً لم يشب !وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ،وقالوا:هو من عند الله ، ليشتروا به ثمناً قليلاً . أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذى أنزل إليكم ». وهذه الموعظة القوية الرائعة ، رواها البخارى فى ثلاثة مواضع من صحيحه ٥/ ٢١٥ ، و١٣ / ٢٨٢ ، ٤١٤ من فتح البارى .

مخطوطة الأزهر

هى مخطوطة نفيسة فى المكتبة الأزهرية ، تحت رقم (١٦٨ تفسير) . فى سبعة مجلدات ، مجموع أوراقها (٢١٩٥) ورقة ، وهى كاملة إلا خرماً فى المجلد الثالث منها ، وقد صورتها لمكتبتى .

كتبها « محمد بن على الصوفى ، البواب بالخانقاه السمسطائية ، بدمشق المحروسة » ، كما أثبت ذلك ناسخها . وفرغ من كتابتها يوم ١٠ جمادى الأولى سنة ٨٢٥ هـ . أمره بكتابتها « قاضى القضاة ، حاكم الحكام ، نجم الدين ، حجة الإسلام والمسلمين . . . عمر ، ابن سيدنا ومولانا . . . أبى محمد حجى السعدى الشافعى . . . برسم خزانته » . وأثبت كاتبها ذلك فى وثيقة مطولة فى آخر النسخة .

وقاضى القضاة نجم الدين بن حجى ولد سنة ٧٦٧هـ بدمشق ، ومات فيها قتيلاً ليلة الأحد مستهل ذى القعدة سنة ٨٣٠ هـ . وهو مترجم فى الضوء اللامع للسخاوى ٦/ ٧٨ ، ٧٩ ، والدارس فى تاريخ المدارس ١/ ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، والشذرات ٧/ ١٩٣ . وكنيته عندهم «أبو الفتوح» . ولكن كاتب هذه النسخة قال : «أبو حفص» . فلا أدرى : أكان له كنيتان ؟ أم أن ما أثبته كاتب النسخة أقرب إلى القبول ؛ لأنه من أتباعه ؟ وهذه النسخة يغلب عليها الصحة ، والخطأ فيها قليل ، بما خبرتها فى مواضع كثيرة ، وفى عملى فى هذا الكتاب . ولكن أستاذنا السيد رشيد رضا رحمه الله لم ينصفها حين وصفها . فإنه حين وصف عمله فى إخراج هذا التفسير ، فى آخر كتاب « فضائل القرآن » الذى ألحقه بالمجلد التاسع الأخير منه ـ قال : «ثم استعرنا من خزانة كتب الجامع الأزهر النسخة الخطية الوحيدة التى فيها ، وليست من الأصول الصحيحة التى يعتمد عليها ، بل هى كثيرة التصحيف والتحريف والسقط» ! وهكذا قال رحمه الله . أما «السقط» ، فقد بينا أنه ليس كذلك ، وإنما هناك نسخ أخرى فيها زيادات زادها الحافظ ابن كثير بعد التأليف . ولعلنا نزيد ذلك بياناً وإثباتاً ، إذا يسر لنا إخراج التفسير كله فى طبعة علمية محققة ، إن شاء الله .

وأما « التصحيف والتحريف » ، فإنه فيها قليل ، مما لا يخلو منه مخطوط أو مطبوع ، بل إنى لأستطيع أن أقرر أن أكثر ما أجد فى مطبوعة المنار من أغلاط وتصحيفات ، أجده ثابتاً على الصواب فى هذه المخطوطة ، « مخطوطة الأزهر » ، وإنى لأجد فى بعض المواضع هامشة لأستاذنا رحمه الله ، يذكر فيها ما فى نسخة الأزهر ، ثم يتبين أنه هو الصواب ، وأن ما أثبت فى صلب الكتاب هو الخطأ أو التصحيف .

والذى أرجحه أن أستاذنا رحمه الله لم يقابل الكتاب على نسخة الأزهر بنفسه ، ولعله عهد بذلك إلى بعض من يلوذ به من الطلاب أو غيرهم ، بعد أن نظر إلى النسخة نظرة عجلى ، على ما كان من مشاغله الكثيرة ، وما اعتذر به فى آخر كلمته من المرض الطويل الذى منعه من كل عمل ، رحمه الله رحمه واسعة .

وها هى ذى نماذج مصورة[1] من بعض صحفها ، قد تقنع القارئ ببعض ما أقول ، إن لم يكن به كله . وأسأل الله سبحانه الهدى والسداد ، والعصمة والتوفيق .

الاثنين : ٢٣ ذى القعدة سنة ١٣٧٥ هـ . أحمد محمد شاكر

٢ يوليو سنة ١٩٥٦م . عفا الله عنه بمنه

---

(١) ستأتى بعد ترجمة الحافظ ابن كثير . (الناشر) .

بسم الله الرحمن الرحيم [١]

الحمد لله رب العالمين ، حمد الشاكرين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين ، سيدنا محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فقد اقتنيت قبل الشروع فى هذا الجزء صورًا لخمس مجلدات مخطوطة من تفسير ابن كثير، من نسخة عتيقة نفيسة صحيحة، الخطأ فيها نادر جدًا ، أحد هذه المجلدات من المكتبة الأزهرية ، وهو المجلد الثالث ، وباقيها من دار الكتب المصرية ، وهى المجلدات ٦، ٨ ،٩ ، ١٠ ،وكلها من نسخة واحدة .

فهذه النسخة مقسمة إلى عشر مجلدات، خلافًا للمخطوطة الأزهرية المقسمة إلى سبع مجلدات [٢]. وهذه النسخة العتيقة أقدم من النسخة الأزهرية ـ على اليقين ـ بما يظهر من خطها، بل لعلها كتبت فى حياة المؤلف ، وهو الراجح عندنا ، ويؤيد ذلك : أن ناسخها كتب بهامش ص (٨٥) منها، عند آخر تفسير الآية: ٩٩ من سورة الأنعام ما نصه : « آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأنعام، من خط المؤلف عفا الله عنه » . فالظاهر من هذا الدعاء ـ عفا الله عنه : أن المؤلف ـ رحمه الله ـ كان حيًا عند كتابته .

وقد ضاع باقى هذه النسخة وما يدرينا ، لعله موجود فى أنحاء من الدنيا لم يصل إلينا علمها ، أو لعل عوادى الزمن أتت عليه ، أو فرّقته فى أماكن متعددة ، كما فرقت هذه المجلدات الخمس ، بين المكتبة الأزهرية ودار الكتب المصرية ، فى مدينة واحدة ، هى مدينة القاهرة . وهاك بيان ما اشتملت عليه هذه المجلدات الموجودة :

المجلد الثالث : أوله أول تفسير سورة الأنعام ، وآخره آخر تفسير الآية : ٣٦ من سورة التوبة ، وهو يوافق ص (٤٧١) من المخطوطة الأزهرية . وقد ختم المؤلف رحمه الله تفسير هذه الآية بقوله: « ولنذكر الأحاديث الواردة فى ذلك ». وهذه الجملة ثابتة فى المخطوطة الأزهرية ، وبعدها بياض قبل البدء فى تفسير الآية التى بعدها ، فلم تذكر فيها الأحاديث التى وعد بها الحافظ ابن كثير . وكذلك ثبت فى مطبوعة المنار ٤/ ١٦٤ . وكتب أستاذنا السيد رشيد رضا بهامش هذا الموضع ما نصه : « ترك المصنف ـ رحمه الله ـ بياضًا بعد هذا لذكر الأحاديث التى وعد بها،والظاهر أنه توفى قبل أن يكتبها .

المجلد السادس : أوله أول تفسير سورة الإسراء ، وآخره آخر تفسير سورة الحج .ولكن فى أوله خمس صفحات وبضعة أسطر من الصفحة السادسة بخط آخر دقيق مخالف لخط سائر النسخة ، متصل بما بعده .

المجلد الثامن : أوله أول تفسير سورة الأحزاب ، وآخره آخر تفسير سورة حم السجدة .

المجلد التاسع : أوله أول تفسير سورة الشورى ، وآخره آخر تفسير سورة الممتحنة ، وفى آخره

---

(١) كتب فضيلة الشيخ أحمد شاكر هذه المقدمة قبل تفسير سورة الأنعام بعد وقوفه على أجزاء لمخطوطة أخرى من دار الكتب المصرية ، حيث قام بضبط النص ابتداء من أول الأنعام حتى الآية رقم (٨) من سورة الأنفال على المخطوطتين . ولم نعثر على هذه الأجزاء فاكتفينا بضبط النص حتى آخر المختصر على المخطوطة الأزهرية الكاملة . (الباز) .

(٢) وصفنا المخطوطة الأزهرية فى الصفحة السابقة .

أربع ورقات بخط آخر مخالف لخطه .

المجلد العاشر : أوله أثناء تفسير الآية : ٢ من سورة الصف ، فهو ينقص ورقة واحدة من أوله ، ثم ينتهى إلى آخر تفسير القرآن الكريم ، ثم يتلوه بالخط نفسه « كتاب فضائل القرآن » للمؤلف ، وضاعت منه الورقة الأخيرة ، والذى كان فيها هو بضعة أسطر من آخر « كتاب فضائل القرآن » ، ويحتمل أن يكون فى هذه الورقة الناقصة اسم الكاتب وتاريخ الكتابة ؛ ولذلك لم نستطع الجزم بتاريخ كتابتها ، لخلو سائر الأجزاء من التاريخ واسم الكاتب .

* * *

ومما يجدر التنبيه له ما ذكرنا آنفًا : أن كاتب هذه النسخة كتب بهامش الصفحة (٨٥) من المجلد الثالث : « آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأنعام ، من خط المؤلف ـ عفا الله عنه ». فإنه قد يفهم منه أن المؤلف قسّم تفسير سورة الأنعام إلى أجزاء صغيرة ، فلماذا كان البدء بالجزء الأول من تفسير سورة الأنعام؟! ولماذا لم يكن التقسيم إلى أجزاء من أول تفسير القرآن ؟! ثم لماذا لم يذكر الكاتب بعد ذلك ـ إلى آخر الكتاب ـ بيانًا بتجزئة المؤلف ، واقتصر على بيان « آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأنعام » ؟!

ليس بين أيدينا فى هذه النسخة ما يفسّر هذا الصنيع ويجيب عن هذه الأسئلة الضرورية فى مثل هذا المقام !!ولكنا وجدنا فى النسخة الأزهرية شيئًا قد يضىء لنا الطريق إلى فهم هذا التصرف ، فإن كاتبها كتب بهامش ص (١٠٨) من الجزء الثالث منها ، قُبيل نهاية تفسير الآية : ١٠٠ من سورة الأنعام ما نصه :

« حشـ [أى : حاشية] : آخر أول أجزاء المؤلف ـ رحمه الله ـ من هذه السورة ، ومن هذه الآية ابتدأ بتعليق هذا التفسير إلى آخر القرآن العظيم،ثم فسّر من سورة البقرة إلى ههنا،ووافق آخر التعليق يوم الجمعة رابع عِشْرِى ذى قعدة ، سنة إحدى وأربعين وسبع مائة ، فكتب الجميع فى نحو أربع سنين».

فهذه الحاشية توافق ما كتب على هامش النسخة العتيقة : أن آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأنعام ـ فى خط المؤلف ـ هو آخر تفسير الآية : ٩٩ من هذه السورة ، ثم تفيدنا ثلاث فوائد جديدة :

١ ـ أن الحافظ ابن كثير بدأ تأليف هذا التفسير من أول الآية : ١٠٠ من سورة الأنعام ، حتى أتم تفسير القرآن العظيم ، ثم رجع عودًا على بدء ، فكتب تتمة التفسير من أوله إلى آخر الآية : ٩٩ من سورة الأنعام .

٢ ـ أنه فرغ من كتابة التفسير يوم الجمعة ٢٤ ذى القعدة سنة ٧٤١ هـ .

٣ ـ أنه كتب هذا التفسير الجليل فى نحو ٤ سنين .

* * *

ولكن لماذا بدأ الحافظ ابن كثير فى كتابة التفسير من أول الآية : ١٠٠ من سورة الأنعام ؟ ولماذا هذه الآية بالتعيين ، وهى ليست بدء سورة، وليست بدء جزء ، وليست بدء ربع حزب؟! ونص الآية :

١٠٠ التى بدأ بتفسيرها ، هو : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ .

لسنا نستطيع أن نعلل هذا التصرف إلا بشيء واحد، قد يكون هو الحقيقة، فى أغلب الظن عندنا ؛ إذ ليس بيدنا دليل آخر يرشدنا إلى تعليله الصحيح ؛ وذلك : أن يكون الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ بدأ دروسًا علمية لتلاميذه فى تفسير القرآن تفسيرًا شفويًا فى الدرس فقط ، وأن الرغبة كانت تساوره ليكتب ما يفسر به ، فيتردد فى الكتابة ، أو أن طلابه كانوا يسألونه كتابة التفسير ، فيتراوح بين الإقدام والإحجام، حتى أتم التفسير الشفوى فى الدرس إلى نهاية الآية : ٩٩ من سورة الأنعام ، ثم زال تردده، ووفقه الله للعزم على كتابة هذا التفسير الجليل ، فلم يرد أن يقطع الدرس ويستأنف التفسير ، فكتب من حيث انتهى فى القراءة ، من بدء الآية : ١٠٠ من سورة الأنعام ، حتى إذا أتم درس التفسير العظيم قراءةً وكتابةً ، استأنف إتمام التفسير من أول الكتاب العزيز ، إلى حيث انتهى من قبل ، فكان القسم الذى كتبه من سورة الأنعام إلى آخر الآية: ٩٩ هو آخر الجزء الأول من تفسيرها فى خطه ، فهو جزءٌ أول فى تفسيرها ، لهذا السبب ، لا قصدًا إلى تقسيم تفسير سورة الأنعام إلى أجزاء ، ولا قصدًا إلى تقسيم التفسير نفسه كله إلى أجزاء ؛ إذ لو قصد إلى هذا لم يكن أول سورة الأنعام أول أجزاء التفسير، كما هو بديهى .

ولعلنا نجد فيما نستقبل من العمل فيه ، إن شاء الله ، ما يدلنا على حقيقة ما كان . وهذا غاية جهدنا الآن ، والحمد لله رب العالمين .

مساء الاثنين : ٧ رجب سنة ١٣٧٧ هـ .

٢٧ يناير سنة ١٩٥٨ م . أحمد شاكر

ترجمة الحافظ ابن كثير

الإمام الحافظ الحجة المحدث المؤرخ الثقة ، ذو الفضائل ، عماد الدين ، أبو الفداء : إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير ، القرشى ، الدمشقى ، الشافعى .

ولد رحمه الله بقرية «مِجْدل » من أعمال « بُصْرى » [١] . وكان أبوه من أهل « بُصْرى»، وأمه من قرية « مجدل » .

وقومه كانوا « ينتسبون إلى الشرف،وبأيديهم نسب. وقف على بعضها شيخنا المزى فأعجبه وابتهج به،فصار يكتب فى نسبى بسبب ذلك «القرشى» ـ كما قال هو فى ترجمة أبيه فى تاريخه «البداية والنهاية».

وتاريخ مولده سنة ٧٠٠هـ ، كما ذكر أكثر من ترجم له،« أو بعدها بقليل » كما قال الحافظ ابن حجر فى الدرر الكامنة.وهو تاريخ تقريبى ، أرجح أنه مستنبط من كلامه فى ترجمة أبيه،حيث ذكر أن أباه «توفى سنة ٧٠٣ هـ. . .وكنت إذ ذاك صغيراً ابن ثلاث سنين أو نحوها، لا أدركه إلا كالحلم» .

و « ابن ثلاث سنين » لا يعرف تواريخ السنين ـ على اليقين ـ فى تلك السن. فقد سمع إذن تحديد السنة التى مات فيها أبوه ممن حوله من إخوة أو أهل أو جيران. ولكنه يدرك أباه «كالحلم » . فالذى هو فى سن أقل من الثلاث ما أظنه يذكر شيئاً « كالحلم » ولا أبعد من الحلم ولا أقرب . فهو حين موت أبيه قد جاوز الثالثة ـ فى أكبر ظنى ـ ولذلك أرجح أن مولده كان فى سنة ٧٠٠هـ أو قبلها بقليل . وهو أقرب إلى الصحة من قول الحافظ ابن حجر « أو بعدها بقليل » ؛ لأن الذى « بعدها » لا يكاد يبلغ الثالثة عند موت أبيه .

وكان أبوه «الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير» من العلماء الفقهاء الخطباء.ولد ـ كما قال ابنه ـ فى حدود سنة ٦٤٠هـ . وترجم له ابنه الحافظ فى تاريخه الكبير « البداية والنهاية » (١٤ / ٣١ ـ ٣٣). ومما قال فى ترجمته : « اشتغل بالعلم عند أخواله بنى عقبة ببصرى ، فقرأ « البداية » فى مذهب أبى حنيفة ، وحفظ « جمل الزجاجى » ، وعنى بالنحو والعربية واللغة ،وحفظ أشعار العرب ، حتى كان يقول الشعر الجيد الفائق فى المدح والمراثى وقليل من الهجاء . وقرر بمدارس بصرى بمبرك الناقة شمالى البلدة ،حيث يزار ، وهو المبرك المشهور عند الناس [٢] ! والله أعلم بصحة ذلك .

ثم انتقل إلى خطابة القرية شرقى بصرى ، وتمذهب للشافعى ، وأخذ عن النواوى والشيخ تقى الدين الفزارى ـ وكان يكرمه ويحترمه ، فيما أخبرنى شيخنا العلامة ابن الزملكانى . فأقام بها نحواً من ١٢ سنة ، ثم تحول إلى خطابة « مجدل » القرية التى منها الوالدة ، فأقام بها مدة طويلة ، فى خير وكفاية وتلاوة كثيرة . وكان يخطب جيداً ، وله مقول عند الناس ، ولكلامه وقع ، لديانته وفصاحته وحلاوته . وكان يؤثر الإقامة فى البلاد [٣] ، لما يرى فيها من الرفق ووجود الحلال له ولعياله .

---

(١) « مجدل » بكسر الميم وفتحها مع سكون الجيم وفتح الدال . و « بُصْرى » بضم الباء وسكون الصاد وآخرها ألف مقصورة: بلد بالشام من أعمال دمشق . وهى قصبة كورة « حوران » .

(٢) يريد هؤلاء الناس ـ فيما يزعمون : مبرك ناقة صالح عليه السلام .

(٣) يعنى القرى .

وقد ولد له عدة أولاد من الوالدة ومن أخرى قبلها. أكبرهم : إسماعيل ، ثم يونس ، وإدريس . ثم من الوالدة : عبد الوهاب ، وعبد العزيز ، وأخوات عدة . ثم أنا أصغرهم وسميت باسم الأخ «إسماعيل»؛ لأنه كان قد قدم دمشق، فاشتغل بها بعد أن حفظ القرآن على والده، وقرأ مقدمة في النحو، وحفظ التنبيه، وشرحه على العلامة تاج الدين الفزاري، وحصل المنتخب في أصول الفقه. قاله لي شيخنا ابن الزملكاني . ثم إنه سقط من سطح الشامية البرانية ، فمكث أياماً ومات . فوجد الوالد عليه وجداً كثيراً ، ورثاه بأبيات كثيرة . فلما ولدت أنا له بعد ذلك سماني باسمه. فأكبر أولاده: إسماعيل، وأصغرهم وآخرهم : إسماعيل. فرحم الله من سلف ، وختم بخير لمن بقي. توفي والدي في شهر جمادى الأولى سنة ٧٠٣هـ في قرية مجدل، ودفن بمقبرتها الشمالية عند الزيتون، وكنت إذ ذاك صغيراً ، ابن ثلاث سنين أو نحوها. لا أدركه إلا كالحلم ، ثم تحولنا من بعده في سنة ٧٠٧هـ إلى دمشق، صحبة «كمال الدين عبد الوهاب» وقد كان لنا شقيقًا، وبنا رفيقًا شغوفًا. وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين [يعني سنة ٧٥٠هـ] . فاشتغلت على يديه في العلم، فيسر الله تعالى منه ما يسر، وسهل منه ما تعسر».

وقد بدأ الاشتغال بالعلم على يد أخيه عبد الوهاب ـ كما قال آنفا ـ ثم اجتهد في تحصيل العلوم على العلماء الكبار في عصره . وحفظ القرآن الكريم ، وختم حفظه سنة ٧١١هـ ، كما صرح بذلك في تاريخه ١٤ / ٣١٢ . وقرأ بالقراءات، حتى عده الداودي من القراء [١] ، وترجم له في طبقاتهم التي ألفها [٢] . وسمع الحديث من كثير من أئمة الحفاظ في عصره ، وعني بالسماع والإكثار منه ، فمما ذكر في تاريخه ١٤/ ١٤٩ : أنه سمع صحيح مسلم في تسعة مجالس على الشيخ نجم الدين بن العسقلاني، بقراءة الوزير العالم أبي القاسم محمد بن سهل الأزدي الغرناطي الأندلسي ، المتوفى بالقاهرة في ٢٢ محرم سنة ٧٣٠هـ ـ حين قدم دمشق في جمادى الأولى سنة ٧٢٤هـ عازماً على الحج.

وذكر في ترجمة شيخه الكبير المعمر الرحلة شهاب الدين الحجار المعروف بابن الشحنة : أنه سمع عليه « بدار الحديث الأشرفية في أيام الشتويات نحواً من خمسمائة جزء بالإجازات والسماع » . وهذا الشيخ « عاش مائة سنة محققاً ، وزاد عليها ». وتوفي سنة ٧٣٠هـ. (التاريخ ١٤/ ١٥٠) .

وتفقه على الشيخين برهان الدين الفزاري وكمال الدين ابن قاضي شهبة . وحفظ التنبيه للشيرازي في فروع الشافعية ، ومختصر ابن الحاجب في الأصول . ولزم الحافظ الكبير أبا الحجاج المزي ، وقرأ عليه مؤلفه العظيم في الرجال « تهذيب الكمال » . وصاهره على ابنته زينب [٣] . وكان من أعظم تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ، ولازمه وتخرج على يديه ، وكانت له به خصوصية ومناضلة عنه ، واتباع له في كثير من آرائه ، وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق [٤] ، وامتحن بسبب

---

(١) الداودي : هو شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي المصري ، مات سنة ٩٤٥هـ . ولكن ابن الجزري لم يذكر ابن كثير في طبقات القراء .

(٢) ومما ينبغي التنبيه إليه: أن « ابن كثير » هذا الحافظ المفسر ، غير « ابن كثير » أحد القراء السبعة . فذاك اسمه « عبد الله ابن كثير المكي » ، إمام أهل مكة في القراءة ، وهو قديم من التابعين ، روى عن ابن الزبير وأنس بن مالك . ولد سنة ٤٥هـ ، ومات سنة ١٢٠هـ .

(٣) ذكرها باسمها في ترجمة شيخه الحافظ المزي ، المتوفى سنة ٧٤٢هـ . (التاريخ ١٤ / ١٩١ ، ١٩٢) .

(٤) أي وقوع الطلاق الثلاث بلفظ واحد طلقة واحدة ، كما هو الحق الذي تدل عليه الدلائل الصحاح .

ذلك وأوذى .

وكان من أفذاذ العلمـاء فى عصره، أثنى عليه معاصروه وتلاميذه ومن بعدهم الثناء الجم: فذكره الحافظ الذهبى فى طبقات الحفاظ ٤ / ٢٩ ، مع أن الذهبى يكاد يكون من طبقة شيوخه؛ لأنه مات سنة ٧٤٨هـ، قبل ابن كثير بـ ٢٦ سنة . فقال فى طبقات الحفاظ : « وسمعت مع الفقيه المفتى المحدث ، ذى الفضائل ، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصروى الشافعى . . . سمع من ابن الشحنة وابن الرداد وطائفة . له عناية بالرجال والمتون والفقه . خرج وناظر وصنف وفسر وتقدم » . وقال الذهبى فى المعجم المختص ـ فيما نقله ابن حجر وغيره : « الإمام المفتى المحدث البارع ، فقيه متفنن ، محدث متقن، مفسر نقال » .

وقال تلميذه شهاب الدين بن حجى : « كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث ، وأعرفهم بتخريجها ورجالها ، وصحيحها وسقيمها . وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك . وكان يستحضر كثيراً من التفسير والتاريخ ، قليل النسيان . وكان فقيهاً جيد الفهم صحيح الذهن ، ويحفظ التنبيه إلى آخر وقت . ويشارك فى العربية مشاركة جيدة ، وينظم الشعر . وما أعرف أنى اجتمعت به ـ على كثرة ترددى عليه ـ إلا واستفدت منه » . (عن النعيمى فى كتاب الدارس) .

وقال تلميذه الحافظ أبو المحاسن الحسينى فى ذيل تذكرة الحفاظ (ص ٥٨) : « وصاهر شيخنا أبا الحجاج المزى فأكثر عنه ، وأقتى ودرس وناظر ، وبرع فى الفقه والتفسير والنحو ، وأمعن النظر فى الرجال والعلل » .

وقال الحافظ ابن حجر فى الدرر الكامنة : « ولازم المزى ، وقرأ عليه تهذيب الكمال ، وصاهره على ابنته . وأخذ عن ابن تيمية ففتن بحبه ، وامتحن بسببه . وكان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة . سارت تصانيفه فى البلاد فى حياته ، وانتفع بها الناس بعد وفاته . ولم يكن على طريقة المحدثين فى تحصيل العوالى ، وتمييز العالى من النازل ونحو ذلك من فنونهم ، وإنما هو من محدثى الفقهاء . وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح (١) ، وله فيه فوائد » .

ونقل السيوطى فى ذيل طبقات الحفاظ كلام الحافظ ابن حجر فى أنه « لم يكن على طريقة المحدثين . . . » ثم تعقبه بقوله : « العمدة فى علم الحديث معرفة صحيح الحديث وسقيمه ، وعلله واختلاف طرقه ، ورجاله جرحاً وتعديلاً . وأما العالى والنازل ونحو ذلك ـ فهو من الفضلات ، لا من الأصول المهمة » . وهذا حق . وقال السيوطى أيضاً : « له التفسير الذى لم يؤلف على نمطه مثله » . يشير إلى هذا التفسير العظيم الذى نختصره .

وقال العلامة العينى ـ فيما نقل عنه ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة : « كان قدوة العلماء والحفاظ ، وعمدة أهل المعانى والألفاظ . وسمع وجمع ، وصنف ودرس ، وحدث وألف . وكان له اطلاع عظيم فى الحديث والتفسير والتاريخ ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهى إليه علم التاريخ

(١) كتابه هذا هو « اختصار علوم الحديث » . طبع أول مرة فى مكة المكرمة بالمطبعة الماجدية سنة ١٣٥٣هـ ، بتصحيح أخينا العلامة الكبير الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة ، أحد كبار المدرسين الآن بالحرم المكى . ثم شرحته أنا شرحاً متوسطاً، وطبع فى مصر فى شهر ذى القعدة سنة ١٣٥٥هـ . ثم أعدت طبعه مرة أخرى مع زيادات وتنقيح فى الشرح، فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٧٠هـ .

والحديث والتفسير . وله مصنفات عديدة مفيدة » .

ووصفه الحافظ العلامة شمس الدين بن ناصر ، فى كتاب « الرد الوافر » ـ بأنه « الشيخ الإمام العلامة الحافظ ، عماد الدين ، ثقة المحدثين ، عمدة المؤرخين ، علم المفسرين » .

وقال فيه ابن حبيب ـ فيما نقل الداودى فى طبقات القراء وابن العماد فى الشذرات :« إمام ذوى التسبيح والتهليل ، وزعيم أرباب التأويل . سمع وجمع وصنف ، وأطرب الأسماع بأقواله وشنف ، وحدث وأفاد ، وطارت فتاويه إلى البلاد ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهت إليه رياسه العلم فى التاريخ والحديث والتفسير » .

وروى له الحافظ ابن حجر فى إنباء الغمر، وابن العماد فى الشذرات ـ البيتين المشهورين، الذائعين على الألسنة :

تمر بنا الأيام تترى وإنما نساق إلى الآجال والعين تنظر

فلا عائد ذاك الشباب الذى مضى ولا زائل هذا المشيب المكدر

وصحبته وملازمته لشيخ الإسلام ابن تيمية أفادته أعظم الفوائد ،فى علمه ودينه ، وتقوية خلقه ، وتربية شخصيته المستقلة الممتازة .

فهو مستقل الرأى ، يدور مع الدليل حيث دار ، لا يتعصب لمذهبه ولا لغيره . وكتبه العظيمة ـ وخاصة هذا التفسير الجليل ـ فيها الدلائل الوافرة . ونجده ـ مع أنه شافعى المذهب ـ يفتى فى مسألة الطلاق الثلاث بلفظ واحد ، بما رجحته الدلائل الثابتة الصحاح ، أنه يقع طلقة واحدة ، ثم يمتحن ويلقى الأذى ، فيثبت على قوله ، ويصبر على ما يلقى فى سبيل الله .

وهو ـ وهو تلميذ شيخ الإسلام ومن خاصة أنصاره ـ يعرف ما كان بين شيخه شيخ الإسلام وبين قاضى القضاة تقى الدين السبكى ـ ومع ذلك فإنه لا يعين عليه فى محنة لحقته ، بل يعلن عن غبطته بأن تزول عنه المحنة . فيذكر فى التاريخ ـ فى حوادث سنة ٧٤٣هـ (١٤/ ٢٠٤) أنه أرجف الناس كثيراً بقاضى القضاة ـ فى دمشق ـ « واشتهر أنه سينعقد له مجلس للدعوى عليه بما دفعه من مال الأيتام إلى الطنبغا وإلى الفخرى . وكتبت فتوى عليه بذلك فى تغريمه ، وداروا بها على المفتين ، فلم يكتب لهم أحد فيها غير القاضى جلال الدين ابن حسام الدين الحنفى ، رأيت خطه عليها وحده بعد الصلاة. وسئلت فى الإفتاء عليها فامتنعت،لما فيها من التشويش على الحكام ».ثم يقول:« وكانوا له فى نية عجيبة ، ففرج الله عنه بطلبه إلى الديار المصرية » . فهذا خلق أهل العلم النبلاء الأتقياء .

وقد طار ذكره فى الأقطار الإسلامية ، حتى إنه ليذكر فى حوادث سنة ٧٦٣ هـ (١٤ / ٢٩٤، ٢٩٥) أن شاباً عجمياً حضر من بلاد تبريز وخراسان ، « يزعم أنه يحفظ البخارى ومسلماً،وجامع المسانيد والكشاف للزمخشرى وغير ذلك » ، وأنه امتحنه بقراءة مجالس من البخارى وغيره بحضرة قاضى القضاة الشافعى وجماعة من الفضلاء ، ثم قال : « وفرح بكتابتى له بالسماع على الإجازة . وقال : أنا ما خرجت من بلادى إلا إلى القصد إليك ، وأن تجيزنى . وذكرك فى بلادنا مشهور » .

وهذا الخبر يدل على أن كتابه « جامع المسانيد » وصل إلى أقصى الشرق ، فى بلاد تبريز

وخراسان، حتى يحفظه هذا الشاب الأعجمي أو يحفظ شيئاً منه . في حين أن الحافظ ابن كثير لم يتم تأليف «جامع المسانيد » كما هو معروف. فكأن العلماء وطلاب العلم كانوا ينسخون ما يخرج منه ، ويتداولونه بينهم ، حتى يصل من دمشق إلى تلك النواحي النائية .

ولم يكن ممن يخدع في الفتاوى التي ظاهرها قصد الاستفتاء، ووراءها ألاعيب سياسية، أو أغراض شخصية غير سليمة ، وإن كان المستفتي من الأمراء أو ممن يخشى بأسه . فهو يقول في حوادث سنة ٧٦٢هـ : « وجاءتني فتيا صورتها : ما تقول السادة العلماء في ملك اشترى غلاماً فأحسن إليه وأعطاه وقدمه، ثم إنه وثب على سيده فقتله وأخذ ماله ومنع ورثته منه ؟ وتصرف في المملكة ، وأرسل إلى بعض نواب البلاد ليقدم عليه ليقتله : فهل له الامتناع منه ، وهل إذا قاتل دون نفسه وماله حتى يقتل يكون شهيداً ؟ وهل يثاب الساعي في خلاص حق ورثة الملك المقتول من القصاص والمال ؟ أفتونا مأجورين ؟».

فهذا استفتاء صيغ في صورة توحي بالجواب. وباطنه أن ذاك الأمير السائل يريد أن يمتنع على الملك الذي دعاه للحضور عنده ، ويريد أن يثير فتنة وقتالاً على صاحب الأمر ، لعله يصل إلى ما يصل إليه ذاك من الملك ، كعادة الأمراء من المماليك في ذلك العهد . ولكن ابن كثير يجيبه جواباً حكيماً يكشف عن بعض مقصده ، ويضمن جوابه النصيحة في مثل هذه الحال ، فيقول : « فقلت للذي جاءني بها من جهة الأمير : إن كان مراده خلاص ذمته فيما بينه وبين الله تعالى ـ فهو أعلم بنيته في الذي يقصده ! ولا يسعى في تحصيل حق معين إذا ترتب على ذلك مفسدة راجحة في ذلك، فيؤخر الطلب إلى وقت إمكانه بطريقه ! وإن كان مراده بهذا الاستفتاء أن يتقوى بها في جمع الدولة والأمراء عليه ـ فلا بد أن يكتب عليها كبار القضاة والمشايخ أولاً، ثم بعد ذلك بقية المفتين بطريقه » . (التاريخ ١٤ / ٢٨١، ٢٨٢).

وكان الإفرنج قد غدروا بمدينة الإسكندرية، وأشاعوا فيها الرعب، وارتكبوا الفظائع غدراً . وذلك : أنهم وصلوا إليها من البحر يوم الأربعاء ٢٢ محرم سنة ٧٦٧ هـ « فلم يجدوا بها نائباً ولا جيشاً ، ولا حافظاً للبحر ولا ناصراً . فدخلوها يوم الجمعة بكرة النهار، بعد ما حرقوا أبواباً كثيرة منها . وعاثوا في أهلها فساداً ، يقتلون الرجال ، ويأخذون الأموال ، ويأسرون النساء والأطفال ، فالحكم لله العلي الكبير المتعال . وأقاموا يوم الجمعة والسبت والأحد والاثنين والثلاثاء ، فلما كان صبيحة الأربعاء قدم الشاليش المصري [1] ، فأقلعت الفرنج ـ لعنهم الله ـ عنها ، وقد أسروا خلقاً كثيراً يقاربون الأربعة آلاف، وأخذوا من الأموال ذهباً وحريراً وبهاراً وغير ذلك ، ما لا يحد ولا يوصف . وقدم السلطان والأمير الكبير يلبغا ظهر يومئذ وقد تفارط الحال ، وتحولت الغنائم كلها إلى الشوائن بالبحر، فسمع للأسارى من العويل والبكاء والشكوى والجأر إلى الله ، والاستغاثة به وبالمسلمين ـ ما قطع الأكباد ، وذرفت له العيون وأصم الأسماع. فإنا لله وإنا إليه راجعون. ولما بلغت الأخبار إلى أهل دمشق شق

---

(١) في النجوم الزاهرة (١١/ ٢٩ طبعة دار الكتب المصرية): « فلما وصل السلطان إلى الطرانة أرسل جاليشاً من الأمراء أمامه في خفية . . . » . وكتب مصححه الأستاذ محمد البرهامي منصور ، بهامشه : « الجاليش : مقدمة الجيش والراية العظيمة في رأسها خصلة من الشعر». وهي كلمة أعجمية ـ لعلها تركية أو فارسية ـ وفي مثلها الجيم شديدة التعطيش ـ بين الجيم والشين ، فيجوز تعريبها جيماً أو شيناً ، مثل « شاويش » و « جاويش » .

عليهم ذلك جداً ، وذكر ذلك الخطيب يوم الجمعة على المنبر ، فتباكى الناس كثيراً . فإنا لله وإنا إليه راجعون».

فهذه وقعة شنيعة غادرة من الإفرنج ـ كعادته ـ والنفوس تتقزز من مثلها ، وتثور من أجلها. والملوك والأمراء الظالمون ينتهزون فرصة تعبئة الرأى العام الإسلامى ـ وثورته من أجل هذا الغدر ، وغضباً لهذه الفظائع ـ ليأكلوا أموال الناس بالباطل ، وظاهر أمرهم الانتقام وباطنه السلب والنهب . ولكن الحافظ ابن كثير يلزم جانب الحق والعدل ، ولا يرضى بالظلم، ولو كان ظاهره الانتقام والثأر للمسلمين . فيقول : «وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية ، إلى نائب السلطنة ، بملك النصارى من الشام جملة واحدة ، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم ، لعمارة ما خرب من الإسكندرية ، ولعمارة مراكب تغزو الإفرنج . فأهانوا النصارى ، وطلبوا من بيوتهم بعنف . وخافوا أن يقتلوا ، ولم يفهموا ما يراد بهم فهربوا كل مهرب . «ولم تكن هذه الحركة شرعية ولا يجوز اعتمادها شرعاً » . وقد طلبت يوم السبت السادس عشر من صفر [أى سنة ٧٦٧ هـ] إلى الميدان الأخضر ، للاجتماع بنائب ـ السلطنة ، وكان اجتماعنا بعد العصر يومئذ ، بعد الفراغ من لعب الكرة ، فرأيت منه أنسا كبيراً ، ورأيته كامل الفهم ، حسن العبارة كريم المجالسة . « فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتماده فى النصارى » [يعنى المرسوم بالمصادرة] . فقال : إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك ! فقلت له : هذا مما لا يسوغ شرعاً، ولا يجوز لأحد أن يفتى بهذا . ومتى كانوا باقين على الذمة ، يؤدون إلينا الجزية ملتزمين بالذلة والصغار ، وأحكام الملة قائمة ـ لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد الفرد فوق ما يبذلونه من الجزية. ومثل هذا لا يخفى على الأمير! فقال: كيف أصنع وقد ورد المرسوم بذلك ؟ ولا يمكننى أن أخالفه ؟!». ثم ذكر أن نائب السلطنة كتب بذلك إلى الديار المصرية . ولكن هذا النائب لم يكن عند قوله ، فنفذ المرسوم، و« طلب النصارى الذين اجتمعوا فى كنيستهم إلى بين يديه،وهم قريب من أربعمائة، فحلفهم: كم أموالكم ؟ وألزمهم بأداء الربع من أموالهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون» . وكانت هذه المصادرة الظالمة فى شهر ربيع الأول سنة ٧٦٧ هـ. ثم قال الحافظ ـ فى حوادث شهر ربيع الآخر: «وفى أوائل هذا الشهر ورد المرسوم الشريف السلطانى، بالرد على نساء النصارى ما كان أخذ منهن مع الجباية التى كان تقدم أخذها منهم وإن كان الجميع ظلماً ،و لكن الأخذ من النساء أفحش وأبلغ فى الظلم » . (التاريخ ١٤/ ٣١٤، ٣١٥ ، ٣١٨) .

فانظر إلى هذا الإمام العظيم ، الذى يقف عند حدود الشريعة المطهرة ، يقيم ميزان العدل الصحيح كما عرفه من دينه الحنيف ، ويألم ويسترجع لما ناب النصارى من مصادرة ظالمة من أمراء طغاة جائرين ، كما ألم واسترجع من قبل لما أصاب المسلمين من غدر النصارى وبغيهم، وشتان هذا وذاك . ولكنه لا يرضى إلا أن يقيم ميزان العدل .

فكان هذا العقل المستقل الثابت على الحق ، والذى لا تغلبه العواطف والأهواء ، مما يجعل للرجل منزلة عند الناس كبيرة. يثق به أنصاره وغير أنصاره ، وموافقوه ومخالفوه . بل جعله موضع الثقة والاستشارة عند الذميين ، حتى ليستشيره بعض رؤسائهم ، فى أخص شؤونهم الكنيسية . فإنه يذكر قصة طريفة ، فى استشارة أحد البتاركة إياه فى ذلك ، يحسن أن نذكرها بعبارته بحروفها:

فقال ـ فى حوادث سنة ٧٦٧ هـ: « وحضر عندى يوم الثلاثاء تاسع شوال ، البترك بشارة ، الملقب بميخائيل ، وأخبرنى أن المطارنة بالشام بايعوه على أن جعلوه بتركاً بدمشق عوضاً عن البترك بأنطاكية . فذكرت له أن هذا أمر مبتدع فى دينهم ، فإنه لا تكون البتاركة إلا أربعة : بالإسكندرية، وبالقدس، وبأنطاكية ، وبرومية . فنقل رومية إلى إسطنبول ، وهى القسطنطينية ، وقد أنكر عليهم كثير منهم إذ ذاك ، فهذا الذى ابتدعوه فى هذا الوقت أعظم من ذلك . لكن اعتذر بأنه فى الحقيقة هو عن أنطاكية ، وإنما أذن له فى المقام بالشام الشريف ، لأجل أنه أمره نائب السلطنة أن يكتب عنه وعن أهل ملتهم إلى صاحب قبرص ، يذكر له ما حل بهم من الخزى والنكال والجناية بسبب عدوان صاحب قبرص على مدينة الإسكندرية . وأحضر لى الكتب إليه وإلى ملك إسطنبول،وقرأها على من لفظه . لعنه الله ولعن المكتوب إليهم أيضاً !! وقد تكلمت معه فى دينهم ، ونصوص ما يعتقده كل من الطوائف الثلاثة ، وهم: الملكية ، واليعقوبية ـ ومنهم الإفرنج والقبط ـ والنسطورية ، فإذا هـو يفهم بعض الشىء . ولكن حاصله أنه حمار ، من أكفر الكفار ! لعنه الله » . (التاريخ ١٤/ ٣١٩ ، ٣٢٠).

ولا يعجبن القارئ من أن ابن كثير أعلم بعقائد طوائف النصارى من أحد بتاركتهم. أستغفر الله، بل إنه يذكر عن ذاك البترك ميخائيل الذى تكلم معه « أنه يفهم بعض الشىء » ؛ لأن ابن كثير رحمه الله من أوسع العلماء اطلاعاً على أقوال أهل الملل والنحل ،وخاصة مذاهب المسيحيين ، كما يدل عليه كلامه فى مواضع كثيرة فى التفسير والتاريخ ، بل يكفى فى الدلالة على سعة اطلاعه فى ذلك أن يكون تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ، ذلك الذى ألف موسوعته النفيسة فى ذلك: «كتاب الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح » . وهو مطبوع معروف .

وكان ـ رحمه الله ـ قد أضر فى آخر عمره. ثم مات يوم الخميس ٢٦ شعبان سنة ٧٧٤هـ . وقال ابن ناصر: « وكانت له جنازة حافلة مشهورة . ودفن بوصية منه فى تربة شيخ الإسلام ابن تيمية ، بمقبرة الصوفية ، خارج باب النصر من دمشق » .

مؤلفاته :

له مؤلفات كثيرة ، ما أظن أنى أستطيع استقصاءها الآن ، وبعضها مفقود ، أو لم نعرف مكان وجوده إلى الآن . وهو يشير إلى كثير منها فى التفسير وغيره من كتبه عند المناسبات . وسنذكر هنا ما وصل إليه علمنا ، وجله ومعظمه عما ذكره أخونا العلامة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة ، فى ترجمته إياه فى كتاب (اختصار علوم الحديث) :

١ ـ التفسير . وهو هذا الكتاب الذى نختصره ، وقد فصلنا وصفه فى المقدمة .

٢ ـ البداية والنهاية . وهو التاريخ النفيس المعروف . طبع منه بمصر سنة ١٣٥٨هـ ـ ١٤ مجلداً كباراً ، أرخ فيه من بدء الخليقة إلى أثناء سنة ٧٦٨هـ ، أى قبل وفاته بنحو ٦ سنوات . وبقى منه مجلدان لم يطبعا (١) . وهو القسم الأخير منه المشار إليه فى اسمه « النهاية » ، جمع فيه ما ورد من الأخبار فى الفتن وأشراط الساعة والملاحم وأحوال الآخرة .

٣ ـ السيرة النبوية (مطولة) . ولم نره ، ولكنه أشار إليه وإلى السيرة المختصرة فى تفسير الآية

(١) قد تم طبعهما . (الباز) .

(٦) من سورة الأحزاب » فى كتاب السيرة التى أفردناها موجزاً وبسيطاً » .

٤ ـ السيرة (مختصرة) . وقد طبعت بمصر سنة ١٣٥٨هـ تحت اسم « الفصول فى اختصار سيرة الرسول » . وهذا المطبوع غير كامل يقيناً . فلا أدرى أقتصر المؤلف رحمه الله على هذا القدر ؟ أم فقد باقى الكتاب ؟ فإنه يقول فى خطبة الكتاب : « لا يجمل بأولى العلم إهمال معرفة الأيام النبوية والتواريخ الإسلامية » . ثم يقول : « وقد أحببت أن أعلق تذكرة فى ذلك . . . وهى مشتملة على ذكر نسب رسول الله ﷺ وسيرته وأعلامه ، وذكر أيام الإسلام بعده ، إلى يومنا هذا » . ولكن المطبوع هو السيرة النبوية فقط ، عن مخطوطة (مكتبة عارف حكمت) بالمدينة المنورة . فالكتاب ناقص بيقين .

٥ ـ اختصار علوم الحديث . اختصر فيه مقدمة ابن الصلاح فى المصطلح .

وقد طبع بمكة ، وطبعته بشرحى مرتين ، كما بينت آنفاً ص : ٢٣ .

٦ ـ جامع المسانيد والسنن . ذكره الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة باسم (الهدى والسنن فى أحاديث المسانيد والسنن) ، وأنه « جمع فيه بين مسند الإمام أحمد والبزار وأبى يعلى وابن أبى شيبة مع الكتب الستة » . ولست أدرى حقيقة هذا الوصف ، فإن المؤلف رحمه الله لم يتمه ، ثم المقدار الذى عمله لم يوجد منه إلا سبعة مجلدات بدار الكتب المصرية . وقد صورت المجلد الأخير منها. وفيه معظم (مسند أبى هريرة) ، رتب فيه الأحاديث من مسند أحمد على أسماء التابعين الرواة عن أبى هريرة ـ على حروف المعجم . وأول هذا المجلد أثناء حرف الجيم ، وأول الأسماء فيه « جعفر بن عياض المدنى عنه »، يعنى عن أبى هريرة . وآخره « آخر مسند أبى هريرة » . وهو فى (٢٦٩) ورقة . وقد درسته طويلاً ، بعملى فى « مسند أبى هريرة » من مسند الإمام أحمد . ولم أجد فيه إشارة إلى «البزار وأبى يعلى وابن أبى شيبة » ولكن تكثر الإشارة فيه إلى الكتب الستة . ولست أدرى خطته فيه بالدقة ، فإنه محتاج إلى دراسة وافية ، بعد تصوير سائر المجلدات الموجودة . ومجموع أوراق المجلدات السبعة ـ على ما فيها من خروم ـ (٢٢٨٠) ورقة .

٧ ـ التكميل فى معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل . جمع فيه كتابى شيخيه : المزى والذهبى ، (تهذيب الكمال) و (ميزان الاعتدال) مع زيادات فى الجرح والتعديل .

٨ ـ مسند الشيخين : أبى بكر وعمر .

٩ ـ رسالة فى الجهاد . وهى مطبوعة .

١٠ ـ طبقات الشافعية ، ومعه مناقب الشافعى (١) .

١١ ـ اختصار كتاب (المدخل إلى كتاب السنن) للبيهقى .

١٢ ـ كتاب (المقدمات) . ولعله فى المصطلح .

١٣ ـ تخريج أحاديث أدلة التنبيه ـ فى فروع الشافعية .

١٤ ـ تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب ـ فى الأصول .

---

(١) وهى مطبوعة بتحقيقنا ـ أنور الباز ـ نشر دار الوفاء بالمنصورة .

١٥ ـ شرح صحيح البخارى ـ شرع فيه ولم يكمله ، وأشار إليه مراراً فى كتبه .

١٦ ـ كتاب (الأحكام) وهو كتاب كبير لم يكمله ـ وصل فيه إلى « الحج » .

مصادر الترجمة:

البداية والنهاية وهو التاريخ الكبير لابن كثير ـ الجزء ١٤ ، طبعة مصر ١٣٥٨هـ.

تذكرة الحفاظ للذهبى، طبعة حيدر آباد ١٣٣٤هـ .

الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى ، الجزء الأول، طبعة دمشق ١٣٦٧هـ .

الدرر الكامنة للحافظ ابن حجر ، الجزء الأول ، طبعة حيدر آباد ١٣٤٨هـ .

ذيول تذكرة الحفاظ للحسينى ، طبعة مصر ١٣٤٧هـ .

ذيول تذكرة الحفاظ للسيوطى ، طبعة مصر ١٣٤٧هـ .

النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ،الجزء ١١ ، طبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٩هـ .

شذرات الذهب لابن العماد ،الجزء ٦ ،طبعة مصر ١٣٥١هـ

الرد الوافر لابن ناصر الدين، الجزء ٦ ، طبعة مصر ١٣٢٩هـ .

ترجمته بقلم الأخ العلامة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة فى أول (اختصار علوم الحديث) بشرحنا، طبعة مصر ١٣٧٠هـ .

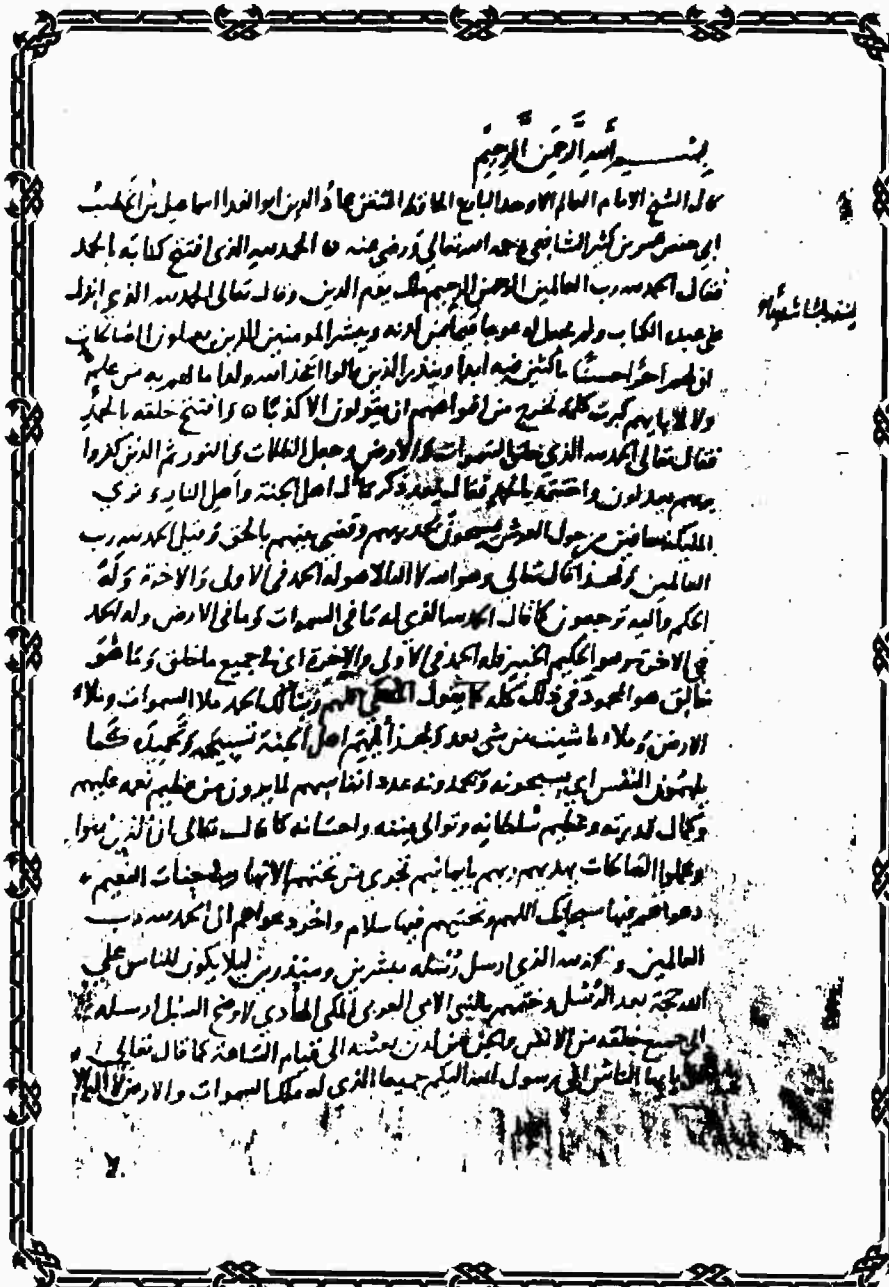

١ـ الصفحة الأولى من مخطوطة الأزهر من تفسير ابن كثير .

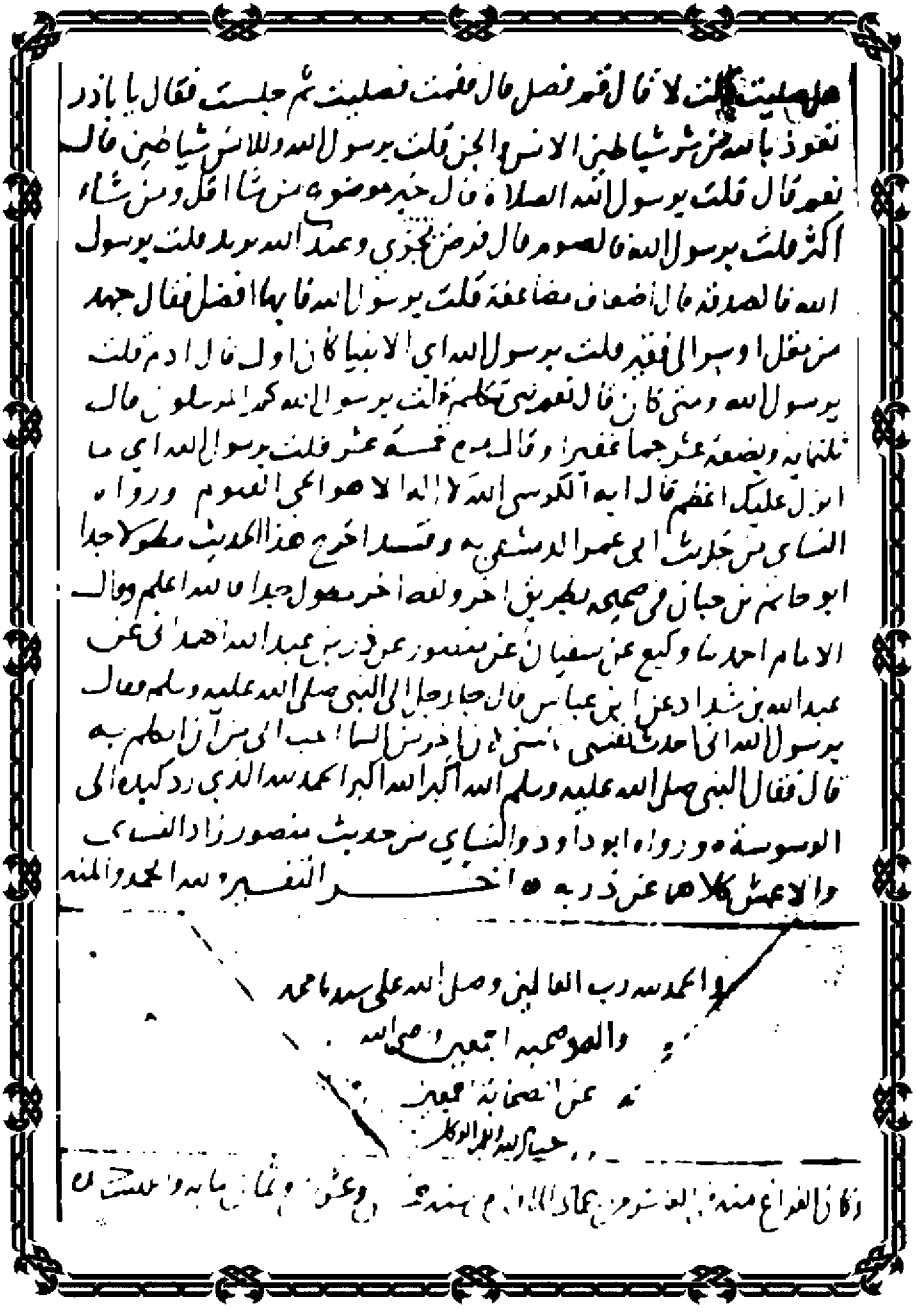

١ـ الصفحة الأخيرة من المجلد السابع من مخطوطة الأزهر من تفسير ابن كثير .

٣ـ صورة ثبت سماع بخط الحافظ ابن كثير على كتاب ((موطأ سويد بن سعيد)) وهي مخطوطة عتيقة جدا . من القرن الخامس . وهذا السماع تاريخه سنة ٧٢٦. وقد أشرنا بسهم إلى اسم الحافظ بخطه : (وكاتب هذه الطبقة إسماعيل بن عمر بن كثير الشافعي) .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة سبحان وهي مكية

قال الإمام الحافظ المتقن أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا آدم بن أبي إياس حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال سمعت عبد الرحمن بن يزيد سمعت ابن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي. وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا حماد بن زيد عن مروان عن أبي لبابة سمعت عائشة تقول: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر.

الجزء ١٥

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

يمجد تعالى نفسه، ويعظم شأنه، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره ولا رب سواه، (الذي أسرى بعبده) يعني محمداً صلى الله عليه وسلم (ليلا) أي في جنح الليل (من المسجد الحرام) وهو مسجد مكة (إلى المسجد الأقصى) وهو بيت المقدس الذي بإيلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأمهم في محلهم ودارهم فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقوله تعالى (الذي باركنا حوله) أي في الزروع والثمار (لنريه) أي محمدا (من آياتنا) أي العظام كما قال تعالى (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) وسنذكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه صلى الله عليه وسلم. وقوله تعالى (إنه هو السميع البصير) أي السميع لأقوال عباده من مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذبهم، البصير بهم فيعطي كلا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

﴿ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء: رواية أنس بن مالك رضي الله عنه﴾

قال الإمام أبو عبد الله البخاري حدثني عبد العزيز بن عبد الله حدثنا سليمان - وهو ابن بلال - عن شريك بن عبد الله عن أنس بن مالك يقول ليلة أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم أيهم هو؟ فقال أوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه - وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم - فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ثم أتي بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشو إيمانا وحكمة فحشا به صدره ولغاديده - يعني عروق حلقه - ثم أطبقه ثم عرج به إلى السماء الدنيا فضرب بابا من أبوابها فناداه أهل السماء من هذا؟ فقال جبريل، قالوا ومن معك؟ قال معي محمد قالوا وقد بعث إليه؟ قال نعم قالوا فرحبا به وأهلا، يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في الأرض حتى يعلمهم، فوجد في السماء الدنيا آدم فقال له جبريل هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلم عليه ورد عليه آدم فقال مرحبا

ابن أسلم يعني أجعله في بيت الملك يتعهم ويترفه ويغذوه عندهم غذاء الملك فذلك الصنعة . وقوله (إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولذلك أنه لما استقر عند آل فرعون عرضوا عليه المراضع فأباها قال الله تعالى (وحرمنا عليه المراضع من قبل) فلما رأت أخته وقالت (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون) تعني هل أدلكم على من يرضعه لكم بالأجرة فذهبت به وهم معها إلى أمه فعرضت عليه ثديها فقبله ففرحوا بذلك فرحا شديدا واستأجروها على إرضاعه فقالوا بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا وفي الآخرة أعظم وأجزل ، ولهذا جاء في الحديث «مثل الصائم الذي يحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها» وقال تعالى ههنا (فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن) أي عليك (وقتلت نفسا) يعني القبطي (فنجيناك من الغم) وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله فخرج منهم هاربا حتى ورد ماء مدين وقال له ذلك الرجل الصالح (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) . وقوله (وفتناك فتونا) قال الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي وجهه الله في كتاب التفسير من سننه قوله (وفتناك فتونا) (حدثنا الفتون) حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا يزيد بن هارون نبأنا أصبغ بن زيد حدثنا القاسم بن أبي أيوب أخبرني سعيد بن جبير قال سألت عبد الله بن عباس عن قول الله عز وجل لموسى عليه السلام (وفتناك فتونا) فسأله عن الفتون ما هو فقال استأنف النهار يا ابن جبير فإن لها حديثا طويلا فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأتجز منه ما وعدني من حديث الفتون فقال : تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكا فقال بعضهم إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك لا يشكون فيه وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب فلما هلك قالوا ليس هكذا كان وعد إبراهيم عليه السلام فقال فرعون كيف ترون فأمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالا معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولودا ذكرا إلا ذبحوه ففعلوا ذلك فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم والصغار يذبحون قالوا ليوشكن أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي يكفونكم فاقتلوا عاما كل مولود ذكرا واتركوا بناتهم ودعوا عاما فلا تقتلوا منهم أحدا فشب الصغار مكان من يموت من الكبار فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم فتخافوا مكاثرتهم إياكم ولم يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم فأجمعوا أمرهم على ذلك فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان فولدته علانية آمنة فلما كان من قابل حاملا بموسى عليه السلام وقع في قلبها الهم والحزن وذلك من الفتون يا ابن جبير ما دخل عليه وهو في بطن أمه مما يراد به . فأوحى الله إليها أن لا تخافي ولا تحزني إنا راادوه إليك وجاعلوه من المرسلين فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ثم تلقيه في اليم فلما ولدت فعلت ذلك فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت في نفسها ما فعلت بابني لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إلي من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه فانتهى الماء به حتى أوفى به عند مرقعة مستقى جواري امرأة فرعون فلما رأينه أخذنه فأردن أن يفتحن التابوت فقال بعضهن إن في هذا مالا وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدناه فيه فحملنه كما هو لم يخرجن منه شيئا حتى رفعنه إليها فلما فتحته رأت فيه غلاما فألقى الله عليه لها محبة لم تلق منها على أحد قط وأصبح فؤاد أم موسى فارغا من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى فلما سمع الذباحون بأمره أتوا بها بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه وذلك من الفتون يا ابن جبير . فقالت لهم أقتلوه فإن هذا الواحد لا يزيد بني إسرائيل حتى آتي فرعون فأستوهبه منه فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجلتم وإن أمر بذبحه لم أملكم فأتت فرعون فقالت قرة عين لي ولك فقال فرعون يكون لك فأما لي فلا حاجة لي فيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها ولكن حرمه ذلك، فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها لبن تختار له ظئرا لجعل كلما أخذته امرأة منهن ترضعه لم يقبل على ثديها حتى تشفق امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق ويجمع الناس ترجو أن تجد له ظئرا تأخذه منها فلم يقبل وأصبحت أم موسى والها فقالت لأخته قصي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكرا أحي ابني أم

٥ ـ صورة من مسودة اختصار الشيخ أحمد شاكر (سورة طه) .

صلى الله عليه وسلم يوما من الدهر بل كفى الله وشفى ، وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن يزيد بن
سبطين عن زيد بن أرقم قال سحر النبي صلى الله عليه ، م رجل من اليهود فاشتكى لذلك أياما فقال لهإن
رجلا من اليهود سحرك وعقد لك عقدا فى بئر كذا ، فأرسل إليها من جاء بها فحبس رسول الله صلى الله عليه وسلم
فاستخرجها فحلها قال فقام رسول الله صل عليه وسلم كأنما نشط من عقال فما ذكر ذلك لليهودى ولا رآه
فى وجهه حتى مات ، ورواه النسائى عن هناد عن ماوية بمحمد بن عبد الرحيم .

وقال البخارى فى كتاب الطب من صحيحه حدثنا الله بن محمد قال سمعت سفيان بن عيينة يقول أول من حدثنا
به ابن جريج يقول حدثنى آل عروة عن عر سألت هشاما عنه فحدثنا عن أبيه عن عائشة قالت كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم سحر حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن قال سفيان وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان
كذا فقال ، ياعائشة أعلمت أن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه ؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند
رجلى فقال الذى عند رأسى للآخر ما بال الرجل ؟ قال مطبوب ، قال ومن طبه ؟ قال لبيد بن أعصم رجل من بنى
زريق حليف اليهود كان منافقا ، قال وفيم ؟ قال فى مشط ومشاطة ، قال وأين ؟ قال فى جف طلعة ذكر تحت راعوفة فى
بئر ذروان ، قالت فأتى البئر حتى استخرجه فقال ، هذه البئر التى أريتها وكأن ماءها نقاعة الحناء وكأن نخلها رءوس الشياطين ، قال
فاستخرج قلت أفلا تنشرت ؟ فقال ، أما الله فقد شفانى وأكره أن أثير على أحد من الناس شرا ، وأخرجه من حديث
سعيد بن يونس وأبى ضمرة أنس بن عياض وأبى أسامة ويحيى القطان وفيه قالت حتى يخيل إليه أنه فعل الشىء ولم
يفعله ، وعنده فأمر بالبئر فدفنت وذكر أنه رواه عن هشام أيضا ابن أبى الزناد والليث بن سعد ، وقد رواه مسلم من
حديث أبى أسامة حماد بن أسامة وعبد الله بن نمير ورواه أحمد عن عفان عن وهب عن هشام به ورواه الإمام أحمد
أيضا عن إبرهيم بن خالد عن معمر عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت : لبث النبى صلى الله عليه وسلم سنة أشهر يرى
أنه يأتى ولا يأتى فأتاه ملكان فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال أحدهما للآخر ما بال الرجل ؟ قال مطبوب ،
قال ومن طبه ؟ قال لبيد بن الأعصم وذكر تمام الحديث وقال الأستاذ المفسر الثعلبى فى تفسيره قال ابن عباس وعائشة
رضى الله عنهما كان غلام من اليهود يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدبت إليه اليهود فلم يزالوا به حتى أخذ مشاطة
رأس النبى صلى الله عليه وسلم وعدة من أسنان مشطه فأعطاها اليهود فسحروه فيها وكان الذى تولى ذلك رجل منهم
يقال له ابن أعصم ثم دس فى بئر لبنى زريق يقال له ذروان فمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتثر شعر رأسه
وبث ستة أشهر يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن وجعل يذوب ولا يدرى ما عراه فبينما هو نائم إذ أتاه ملكان فجلس
أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال الذى عند رأسه للذى عند رجليه ما بال الرجل ؟ قال طب ، قال وما طب قاله
سحر ، قال ومن سحره ؟ قال لبيد بن الأعصم اليهودى قال وبم طبه ؟ قال بمشط ومشاطة قال وأين هو ؟ قال فى جف طلعة ذكر
تحت راعوفة فى بئر ذروان والجف قشر الطلع والراعوفة حجر فى أسفل البئر تاتى يقوم عليه الماتح ، فأتى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فى ناس من أصحابه فجاء البئر فنظر إلى نخلها كأنه رءوس الشياطين ، فقيل يا رسول الله ألا نستخرجه ؟ فقال
لا أما أنا فقد شفانى الله وكرهت أن أثير على الناس شرا ، وأمر بها فدفنت وذكر الحديث بطوله ، وفى بعض طرقه
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليا والزبير وعمار بن ياسر فنزحوا ماء البئر كأنه نقاعة الحناء ثم رفعوا الصخرة وأخرجوا الجف فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان
من مشطه وإذا فيه وتر معقود فيه اثنا عشرة عقدة مغروزة بالإبر ، فأنزل الله تعالى المعوذتين فجعل كلما قرأ آية انحلت
عقدة ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم خفة حين انحلت العقدة الأخيرة فقام كأنما نشط من عقال وجعل جبريل
عليه السلام يقول بسم الله أرقيك من كل شىء يؤذيك من حاسد وعين ، والله يشفيك . فقال يا رسول الله ألا نأخذ
الخبيث فنقتله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما أنا فقد شفانى الله وأكره أن أثير على الناس شرا . هكذا رواه
بلا إسناد فيه غرابة وفى بعضه نكارة شديدة وبعضه شواهد بما تقدم والله أعلم .

تفسير سورة الناس : وهى مكية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ
الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾

هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل الربوبية والملك والإلهية فهو رب كل شىء ومليكه وإله جميع الأشياء

٦ـ صورة من مسودة اختصار الشيخ أحمد شاكر (سورة الفلق) .

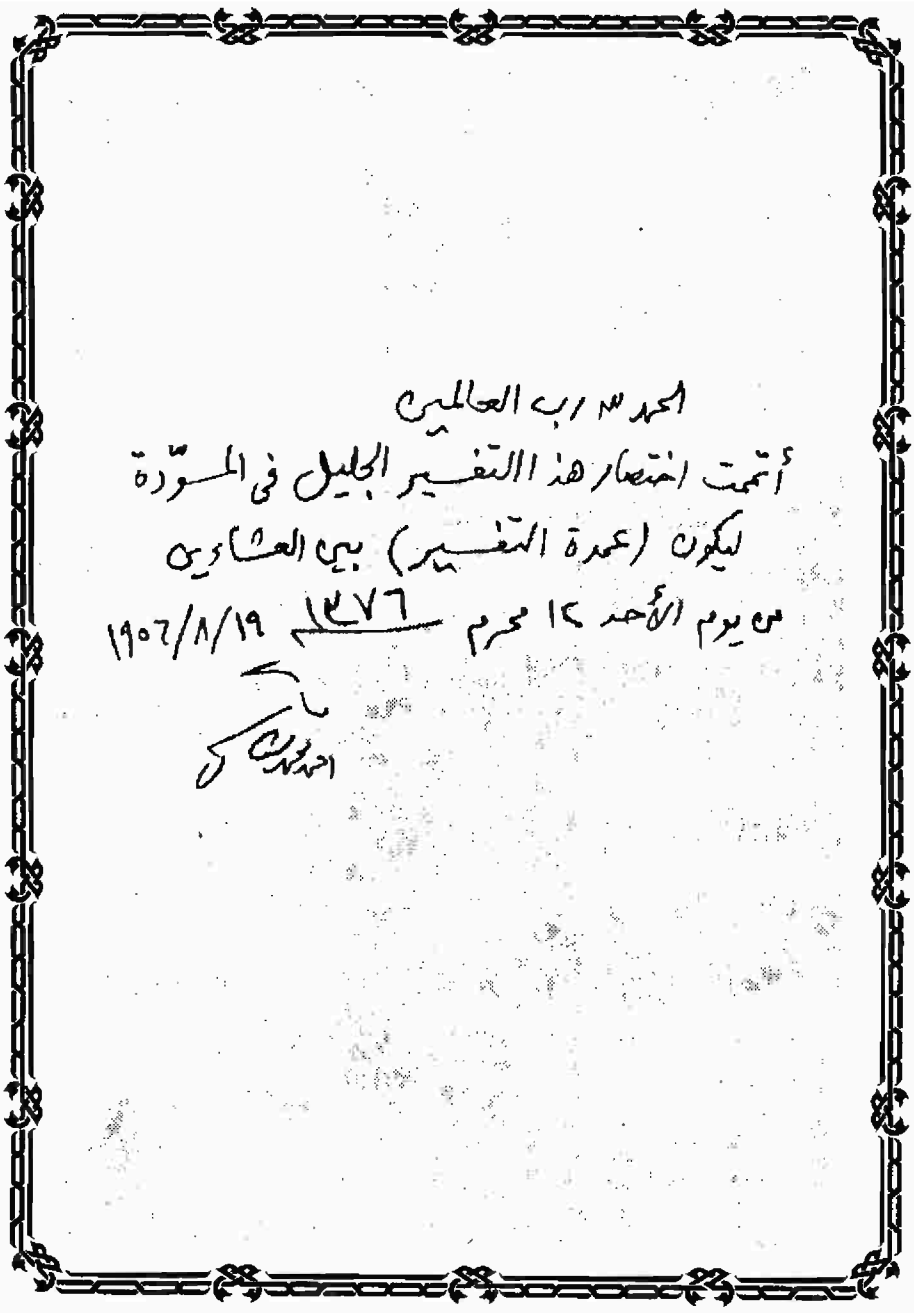
الحمد لله رب العالمين
أتممت اختصار هذا التفسير الجليل في المسوّدة
ليكون (عمدة التفسير) بين العشائرين
من يوم الأحد ١٢ محرم ١٢٧٦هـ ١٩٠٦/٨/١٩
احمد محمد شاكر

٧ـ صورة بخط الشيخ أحمد شاكر كتبها بعد إتمام المختصر في المسودة (بعد المعونتين) .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام الأوحد، البارع الحافظ المتقن، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن الخطيب أبى حفص عمر بن كَثير الشافعى، رحمه الله تعالى، ورضى عنه:

الحمد لله الذى افتتح كتابه بالحمد فقال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢ـ٤]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا . قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا . وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ١ـ٥]، وافتتح خَلْقه بالحمد، فقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، واختتمه بالحمد، فقال بعدما ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]، كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

فله الحمد فى الأولى والآخرة، أى فى جميع ما خلق وما هو خالق، هو المحمود فى ذلك كله، كما يقول المصلى: «اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شىء بعد»؛ ولهذا يُلْهَم أهل الجنة تسبيحه وتحميده كما يُلْهَمون النَّفَس، أى يسبحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم؛ لما يرون من عظيم نعمه عليهم، وكمال قدرته وعظم سلطانه، وتوالى منّته ودوام إحسانه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٩، ١٠].

والحمد لله الذى أرسل رسله ﴿ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وختمهم بالنبى الأمى العربى المكى الهادى لأوضح السبل، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن، من لدن بعثته إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعَجَم، وأسودَ وأحمرَ، وإنس وجان، فهو نذير له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]. فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده، بنص الله تعالى. وكما قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: ٤٤]. وقال رسول الله ﷺ: «بُعِثتُ إلى الأحمر والأسود»(١). قال مجاهد: يعنى: الإنس والجن. فهو، صلوات الله وسلامه عليه، رسول الله إلى جميع الثقلين: الإنس والجن، مُبَلِّغاً لهم عن الله ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذى ﴿لا يأتيه الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

(١) معناه ثابت ضمن حديث رواه مسلم (١/ ١٤٧) عن جابر، وآخر رواه أحمد فى المسند (٢٢٥٦، ٢٧٤٢) عن ابن عباس.

وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه نَدَبهم فيه إلى تَفَهُّمه، فقال تعالى: ﴿أفلا يتدبَّرُونَ القُرآنَ ولَوْ كانَ منْ عند غَيرِ اللَّه لوَجدُوا فيه اختلافًا كثيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿كتابٌ أنزلْناهُ إليْكَ مُبارَكٌ ليَدبَّرُوا آياته وليَتذكَّرَ أُولُوا الألْبَاب﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أفلا يتدبَّرُونَ القُرآنَ أمْ علَى قُلُوبٍ أقْفالُها﴾ [محمد: ٢٤].

فالواجب على العلماء الكشف عن معانى كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتَعلُّم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: ﴿وإذْ أخَذَ اللَّهُ ميثاقَ الَّذينَ أُوتُوا الكتابَ لتُبيِّنُنَّهُ للنَّاس ولَا تكْتُمُونَهُ فنَبَذُوهُ وراءَ ظُهُورهمْ واشْتَرَوْا به ثَمنًا قَليلًا فبئْسَ ما يشْتَرُون﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿إنَّ الَّذينَ يشْتَرُونَ بعهْد اللَّه وأيْمانهمْ ثَمنًا قَليلًا أُولَئكَ لا خَلاقَ لَهُمْ في الآخرَة ولا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ولا ينظُرُ إليْهمْ يوْمَ القيامَة ولا يُزَكِّيهمْ ولَهُمْ عذابٌ أليمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧]. فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله إليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا ـ أيها المسلمون ـ أن ننتهى عما ذمَّهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به، من تَعَلُّم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهيمه، قال الله تعالى: ﴿ألَمْ يأْنِ للَّذينَ آمنُوا أنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لذكْر اللَّه ومَا نزَلَ منَ الْحَق ولَا يكُونُوا كالَّذينَ أُوتُوا الكتابَ منْ قَبْلُ فطَالَ عليْهمُ الأمَدُ فقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وكَثيرٌ منْهُمْ فاسقُون. اعْلَموا أنَّ اللَّهَ يُحْيي الأرْضَ بَعْدَ موْتهَا قَدْ بيَّنَّا لَكُمُ الآيَات لَعَلَّكُمْ تَعْقلُون﴾ [الحديد: ١٦، ١٧]. ففى ذكره تعالى لهذه الآية بعد التى قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيى الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان بعد قسوتها من الذنوب والمعاصى، والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا ذلك، إنه جواد كريم. **فإن قال قائل:** فما أحسن طرق التفسير؟

فالجواب: إن أصح الطرق فى ذلك أن يُفَسَّر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِل فى مكان فإنه قد فُسِّر فى موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام الشافعى: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى: ﴿إنَّا أنزلْنَا إليْكَ الْكتَابَ بالْحَقّ لتَحْكُمَ بيْنَ النَّاس بمَا أرَاكَ اللَّهُ ولَا تكُنْ للْخَائنينَ خَصيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿ومَا أنزلْنَا عليْكَ الْكتَابَ إلَّا لتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذي اخْتَلَفُوا فيه وهُدًى ورَحْمَةً لقَوْمٍ يُؤْمنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه» يعنى: السنة. والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحى، كما ينزل القرآن؛ إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن، وقد استدل الإمام الشافعى، وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة.

والغرض أنك تطلب تفسيرَ القرآن منه، فإن لم تجدْه فمن السنة، كما قال رسولُ الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟». قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: بسنة رسول الله. قال: «فإن لم تجد ؟». قال: أجتهد برأيى. قال: فضرب رسول الله ﷺ فى صدره، وقال: «الحمد لله الذى وفَّق رَسُولَ رسول الله لما يرضى رسول الله». وهذا الحديث فى المسانيد والسنن بإسناد جيد. وحينئذ، إذا لم تجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة، رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التى اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين، وكعبد الله بن مسعود.

فقد قال ابن مسعود: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن،

والعمل بهن. وقال أبو عبد الرحمن السلمى: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبى ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا.

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس، ابن عم رسول الله ﷺ، وترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: «اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل». وروى الطبرى عن ابن مسعود قال: نعم ترجمان القرآن ابنُ عباس. وإسناده صحيح. وقد مات ابن مسعود، فى سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح، وعُمِّر بعده ابن عباس ستاً وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود! وقال أبو وائل: استخلف علىّ عبد الله بن عباس على الموسم، فخطب الناس، فقرأ فى خطبته سورة البقرة، وفى رواية: سورة النور، ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا.

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير فى تفسيره، عن هذين الرجلين: ابن مسعود وابن عباس، ولكن فى بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب، التى أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: «بلِّغوا عنى ولو آية، وحدِّثوا عن بنى إسرائيل ولا حَرَج، ومن كذب علَىَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» رواه البخارى عن عبد الله بن عمرو.

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح.

والثانى: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر دينى؛ ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب فى هذا كثيراً، ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون فى مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدّتهم، وعصا موسى من أى شجر كانت؟ وأسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذى ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التى كلَّم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن، مما لا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دنياهم ولا دينهم. ولكن نَقْلُ الخلاف عنهم فى ذلك جائز، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا ولا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢]، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب فى هذا المقام وتعليم ما ينبغى فى مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فقال فى مثل هذا: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾، فإنه ما يعلم ذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلعه الله عليه؛ فلهذا قال: ﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أى: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب.

فهذا أحسن ما يكون فى حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال فى ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة

تحته، فتشتغل به عن الأهم .

فأما من حكى خلافاً فى مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب فى الذى تركه. أو يحكى الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضاً. فإن صحح غير الصحيح عامداً فقد تعمد الكذب، أو جاهلا فقد أخطأ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالا متعددة لفظاً ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان، وتكثر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبى زور، والله الموفق للصواب.

فصل :

إذا لم تجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة فى ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جَبْر، فإنه كان آية فى التفسير ، فقد روى الطبرى عن ابن أبى مُلَيْكَة قال: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواحه، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله. ولهذا كان سفيان الثورى يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به . وكسعيد بن جُبَيْر، وعِكْرِمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبى رباح، والحسن البصرى، ومسروق بن الأجدع ، وسعيد بن المسيب ، وأبى العالية ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، والضحاك بن مُزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم فى الآية فيقع فى عباراتهم تباين فى الألفاظ، يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالا، وليس كذلك، فإن منهم من يعبّر عن الشىء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشىء بعينه، والكل بمعنى واحد فى كثير من الأماكن، فليتفطن اللبيب لذلك، والله الهادى.

وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين فى الفروع ليست حجة، فكيف تكون حجة فى التفسير؟ يعنى: أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشىء فلا يرتاب فى كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على قول بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع فى ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة فى ذلك.

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأى فحرام، لما رواه محمد بن جرير، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «من قال فى القرآن برأيه، أو بما لا يعلم، فليتبوأ مقعده من النار » . ورواه الترمذى والنسائى ، وأبو داود، وقال الترمذى: حديث حسن. وروى ابن جرير، عن جُنْدب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال فى القرآن برأيه فقد أخطأ».

ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى ، وقال الترمذى: غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم فى سهيل. وفى لفظ لهم: «من قال فى كتاب الله برأيه، فأصاب، فقد أخطأ » أى : لأنه قد تكلف ما لا علم له به ، وسلك غير ما أمر به ، فلو أنه أصاب المعنى فى نفس الأمر لكان قد أخطأ ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه ، كمن حكم بين الناس على جهل فهو فى النار ، وإن وافق حكمه الصواب فى نفس الأمر، لكن يكون أخف جُرْماً ممن أخطأ، والله أعلم [1] ،وهكذا سمى الله القَذَفة كاذبين، فقال: ﴿ فَإِذْ

(١) أما فى عصرنا، فقد نابت نوائب، ونبتت نوابت، ممن استعبدوا لآراء المبشرين وأهوائهم. وممن جهلوا لغة العرب إلا كلام العامة وأشباههم، وجهلوا القرآن فلم يقرؤوه ، ولا يكادون يسمعونه إلا قليلا، وجهلوا السنة ، بل كانوا من أعدائها. =

﴿لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور:١٣]، فالقاذف كاذب، ولو كان قد قذف من زنى فى نفس الأمر؛ لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به ، ولو كان أخبر بما يعلم؛ لأنه تكلف ما لا علم له به، والله أعلم.

ولهذا تَحَرَّج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : أىّ أرض تقلّنى ، وأى سماء تظلنى ، إذا قلت فى كتاب الله بما لم أعلم ! وروى أبو عبيد القاسم بن سلام : أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله تعالى :﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، فقال: أى سماء تظلنى، وأى أرض تقلنى، إذا أنا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم . إسناده منقطع. وروى أيضاً : أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر : ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس : ٣١] ، فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبّ ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو التكلف يا عمر . وروى عبد بن حميد عن أنس ، قال : كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفى ظهر قميصه أربع رقـاع ، فقـرأ: ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ فقال : ما الأب ؟ ثم قال : إن هذا لهو التكلف، فما عليك ألا تدريه.

وهذا كله محمول على أنهما رضي الله عنهما إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب، وإلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل، لقوله: ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا﴾ الآية [عبس: ٢٧، ٢٨].

وروى الطبرى عن ابن أبى مُلَيْكَة: أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها. وإسناده صحيح.

وروى أبو عبيد عن ابن أبى مليكة، قال: سأل رجل ابن عباس عن ﴿ يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [السجدة:٥] فقال له ابن عباس: فما ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] ؟ فقال له الرجل: إنما سألتك لتحدثنى. فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله فى كتابه، الله أعلم بهما. فكره أن يقول فى كتاب الله ما لا يعلم. وروى الطبرى عن الوليد بن مسلم ، قال : جاء طَلْق بن حبيب إلى جُنْدُب بن عبد الله ، فسأله عن آية من القرآن ؟ فقال : أحرِّج عليك إن كنت مسلماً لما قمتَ عنى ، أو قال : أن تجالسنى. وروى مالك، عن سعيد بن المسيب: أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن، قال: إنا لا نقول فى القرآن شيئاً . وروى الليث عنه أنه كان لا يتكلم إلا فى المعلوم من القرآن.

وقال ابن شَوْذَب : حدثنى يزيد بن أبى يزيد ، قال : كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحرام والحلال ، وكان أعلم الناس ، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت ، كأن لم يسمع . وروى ابن جرير عن عبيد الله بن عمر ، قال : لقد أدركتُ فقهاء المدينة ، وإنهم ليعظّمون القول فى التفسير ، منهم : سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد ، وسعيد بن المسيب ، ونافع . وروى أبو عبيد عن هشام ابن عُرْوَة ، قال : ما سمعت أبى تَأوَّل آية من كتاب الله قط . وروى أيضا عن مسلم بن يسار ، قال :

= وممن سخروا من علم علماء الإسلام ، وسفهت أحلامهم ، ومردت ألسنتهم على قولة السوء فى سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . بل لا يؤمنون بالغيب إلا قليلا. هؤلاء وأشباههم وأمثالهم، اجترؤوا على العبث بالقرآن ، واللعب بالسنة ، فعرضوا لتفسير القرآن ، وزعموا لأنفسهم الاجتهاد الجاهل ، يفتون الناس ويعلمونهم اللعب والعبث ، وينزعون من قلوبهم الإيمان . لا أقول : إن هؤلاء وأولئك يفسرون القرآن بأهوائهم، فإنهم أضعف من أن تكون لهم أهواء وأشد جهلا، بل بأهواء سادتهم ومعلميهم من المبشرين والمستعمرين أعداء الإسلام ، وقد نضرب المثل لذلك عند المناسبات ، فيما سيأتى ، إن شاء الله.

إذا حدثت عن الله حديثا فقف، حتى تنظر ما قبله وما بعده . وروى أيضا عن مسروق، قال: اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله.

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام فى التفسير بما لا علم لهم به؛ فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً، فلا حرج عليه؛ ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال فى التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد؛ فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه ، لقوله تعالى: ﴿ لَيُبَيِّنَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ [1] ﴾ [آل عمران: ١٨٧]،ولما جاء فى الحديث المروى من طرق: «من سئل عن علم فكتمه ، أُلْجِم يوم القيامة بلجام من نار». روى ابن جرير عن ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله .

---

(١) هى قراءة سبعية متواترة كما فى البحر المحيط ٣ / ١٣٦ . (الباز) .

مقدمة

قال قتادة : نزل فى المدينة من القرآن: البقرة،وآل عمرانَ، والنساء،والمائدة ، وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والنُّور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات ، والرحمن، والحديد ، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ ، إلى رأس العشر، وإذا زلزلت، وإذا جاء نصرُ الله. هؤلاء السور نزلت بالمدينة، وسائر السور بمكة.

فأما عدد آيات القرآن فستة آلاف آية، ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال، فمنهم من لم يزد على ذلك، ومنهم من قال: ومائتا آية وأربع آيات، وقيل: وأربع عشرة آية، وقيل: ومائتان وتسع عشرة آية ، وقيل: ومائتان وخمس وعشرون آية، أو ست وعشرون آية، وقيل: ومائتان وست وثلاثون . حكى ذلك أبو عمرو الدانى فى كتابه البيان.

وأما التحزيب والتجزئة، فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما فى الربعات بالمدارس وغيرها، وأما تحزيب الصحابة للقرآن ففى مسند الإمام أحمدَ وسُنَنِ أبى داودَ وابن ماجَهْ غيرهم عن أوس بن حُذَيفة أنَّه سَأَلَ أصحابَ رسول الله ﷺ فى حياته: كيف تُحَزِّبُون القرآن؟ قالوا: ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرَةَ ، وثلاثَ عَشْرَةَ، وحزْبُ المُفَصَّل حتى نختم [1] .

فصل :

واختلف فى معنى السورة: مِمَّا هى مشتقة؟ فقيل: من الإبانة والارتفاع. فكأن القارئ ينتقل بها من منزلة إلى منزلة. وقيل: لشرفها وارتفاعها كسور البلدان. وقيل: سميت «سُورَةً» لكونها قِطْعَةً من القرآن وجزءًا منه، مأخوذ من سؤر الإناء وهو البقية، وعلى هذا فيكون أصلها مهموزاً، وإنما خففت الهمزة فأبدلت الهمزة واواً لانضمام ما قبلها. وقيل: لتمامها وكمالها ؛ لأن العرب يسمون الناقة التامة: سُورَةً.

قلت: ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها ، كما يسمَّى سورُ البلد؛ لإحاطته بمنازله ودُوره. وجمع السورة سُوَرٌ بفتح الواو، وقد تُجمع على سُوْرَات وسُوَرَات وسُورات.

وأما الآية ، [فأصل معناها : العلامة. سميت بذلك لأنها العلامة] [2] على انقطاع الكلام الذى قبلها عن الذى بعدها وانفصالها، أى: هى باثنة عن أختها ومنفردة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٨]. وقيل: لأنها جماعةُ حروف من القرآن وطائفة منه، كما يقال: خرج القوم بآياتهم، أى: بجماعاتهم. وقيل: سُمِّيت آيةً لأنها عَجَبٌ يَعْجِز البشر عن التكلّم بمثلها. قال سيبويه: وأصلها أَيَيَة مثل أَكَمَة وشَجَرَة، وتحرَّكت الياءُ وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً فصارت آية، بهمزة بعدها مدة. وقال الكسائى: أصلها آيِيَة على وزن آمِنة، فَقُلِبت ألفاً، ثم حُذفت لالتباسها. وجمعُها: آىٌ وآياىٌ وآياتٌ.

وأما الكلمة فهى اللفظة الواحدة، وقد تكون على حرفين مثل: «ما» و«لا» ونحو ذلك ، وقد تكون

---

(١) سيذكر المؤلف هذا الحديث مطولا ، ويشرحه ، فى أول « سورة ق » ، وهى أول المفصل ، وانظر ابن حبان بتحقيقنا (١/ ١١٠) .

(٢) فى المطبوعة: «وأما الآية فمن العلامة» ! وهو كلام غير مستقيم، فزدنا ما بين القوسين لإقامته. وهذه المقدمة من أولها ليست فى الأزهرية ، فلم نجد مناصا من تصحيحها اجتهادا.

أكثر. وأكثر ما تكون عشرة أحرف: مثل ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ [النور: ٥٥]، و ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ [هود: ٢٨]، و﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقد تكون الكلمة الواحدة آية، مثل: والفجر، والضحى، والعَصْر، وكذلك: الم، وطه، ويس، وحم ـ في قول الكوفيين ـ و﴿ حمٓ . عٓسٓقٓ ﴾ عندهم كلمتان. وغيرهم لايسمى هذه آيات بل يقول: هذه فواتح السُّوَر. وقال أبو عَمْرو الدانيّ: لا أعلم كلمةً هي وحدها آيةٌ إلا قوله تعالى: ﴿ مُدْهَامَّتَانِ﴾ بسورة الرحمن [الآية: ٦٤].

فصل:

قال القرطبي: أجمعوا على أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية، وأجمعوا أن فيه أعلامًا من الأعجمية كإبراهيم، ونوح، ولوط، واختلفوا: هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية؟ فأنكر ذلك الباقلاني والطبري وقالا: ما وقع فيه مما يوافق الأعجمية فهو من باب ما توافقت فيه اللغات[1].

(١) هذا هو الحق الذي تدل عليه الدلائل. وقد شنع الشافعي ـ رحمه الله ـ بمن زعم أن في القرآن ألفاظا أعجمية، تشنيعا شديدا بأبلغ عبارة وأعلاها وأقواها، في كتاب (الرسالة) في الفقرات: (١٣١ـ ١٧٨) بتحقيقنا.